الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح ـ ورقلة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المنفى والذاكرة في رواية آيات عاشق لمحمد موافي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

الميدان :اللغة والأدب العربي

الشعبة : دراسات أدبية

التخصص : أدب عربي حديث ومعاصر

إعداد الطالبة:
نور الهدى سعادة

إشراف **الأستاذة و الدكتورة**:
أحلام بن الشيخ

أعضاء اللجنة	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة
فايزة أحمد خمقاني	دكتور	رئيسا	جامعة قاصدي مرباح ورقلة
أحلام بن الشيخ	بروفيسور	مشرفا ومقررا	جامعة قاصدي مرباح ورقلة
حفيظة زناتي	دكتور	ممتحنا	جامعة قاصدي مرباح ورقلة

2024/2023 الموافق ل 1445 هـ

العنوان

المنفى والذاكرة في رواية آيات عاشق لمحمد موافي

إعداد الطالبة:

نور الهدى سعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
فهرس المحتويات	
ملخص البحث	/
المقدمة	أ.ب.ج
المدخل: المنفى والذاكرة في الفهم النظري	
1 -مفهوم المنفى:	03
1-1 أنواع المنفى	06
2-مفهوم الذاكرة	07
الفصل الأول: حضور المنفى والذاكرة في قصة هرم بن عبد الله الظفاري	
1-دافع المنفى وعواقبه في قصة هرم بن عبد الله الظفاري	11
1-1 دافع المنفى	11
2-1 عواقب المنفى	12
2-استدعاء الذاكرة للشخصيات والأماكن	21
2-1ارتباط الذاكرة بالشخصيات	21
2-2 ارتباط الذاكرة بالأماكن	27
الفصل الثاني :تداعيات المنفى وخصوصية الذاكرة في قصة ماري ترتليان	
1- سبب النفي وتداعياته على "ماري ترتليان"	33
1-1 ما قبل الشعور بالنفي	33
2-1 رفض النفي الجسدي الطوعي	35
2-1 المنفى النفسي بديلا عن الوطن	36
1-2 تداعيات المنفى النفسي على ماري	37
2- خصوصية الذاكرة في قصة ماري ترتليان	41
1-2 ارتباط الذاكرة بالأشخاص والأماكن	41
الخاتمة	51
قائمة المصادر والمراجع	

ملخص البحث

ملخص البحث

يهدف هذا البحث الموسوم ب "الذاكرة والمنفى في رواية آيات عاشق لمحمد موافي" لمعالجة القضايا الراهنة التي شهدها العالم العربي، من خلال تجربة المنفى التي شكلت محورًا أساسيًا بيّن أسباب اضطرار آلاف البشر إلى الهروب من أوطانهم بسبب الظروف الراهنة، مسلطًا الضوء على آلية الذاكرة لإبراز الصراع القائم بين الحاضر والماضي، ولإثبات الهوية المهددة بالزوال، معتمدًا في هذه الرواية التاريخية على قصة "أصحاب الأخدود"، التي شكلت قاعدة واقعية للقصّة المتخيّلة.

اعتمدت الدراسة على النقد الموضوعاتي منهجًا لدراسة الموضوع، فانقسمت خطة البحث على ضوء ذلك إلى؛ مقدمة ومدخل حاولنا فيه حصر المفاهيم النظرية للمنفى والذاكرة، ثم فصلين اعتمدا على محاورة النص مباشرة من خلال بحث تيمتي "المنفى والذاكرة"، فخُصّ الفصل الأول للمنفى والذاكرة في قصة هرم الظفاري، أما الفصل الثاني فعالج على منوال الأول حضور المنفى والذاكرة في قصة ماري ترتليان، لنختتم بأهم النتائج المتوصل إليها.

الكلمات المفتاحية:

المنفي، الذاكرة، المقاومة، الحكم، أصحاب الأخدود، اللجوء، المعارضة.

Abstract:

This research, entitled “Memory and Exile in the Novel Ayat Ashiq by Muhammad Muwafi,” aims to address the current issues witnessed by the Arab world, through the experience of exile, which formed a political axis that explained the reasons for thousands of people being forced to flee their homelands due to the current circumstances, shedding light on the mechanism of memory to highlight The conflict that exists between the present and the past, and to prove the identity that is threatened with disappearance, based in this historical novel on the story of “The People of the Groove,” which formed a realistic basis for the imagined story.

The study relied on thematic criticism as an approach to studying the subject. In light of this, the research plan was divided into: An introduction and an introduction in which we tried to summarize the theoretical concepts of exile and memory, then two chapters that relied on the dialogue of the text directly by examining the themes of “exile and memory.” The first chapter was devoted to exile and memory in the story of the Pyramid of Dhafari, while the second chapter dealt with, in the same way as the first, the presence of exile and memory in the story of Mary. Tartullian, let us conclude with the most important findings.

key words:

Exile,memory, resistance, governance, people of the groove, asylum, opposition.

الإهداء

إلى من كان دعاؤهم ورضاهم عني شمعةً أنارت لي درب الحياة

"أمي الغالية وأبي العزيز"

إلى من أتقاسم معهم حُلو الحياة ومرّها "عائلتي، زوجي، وأبي الثاني"

شـــــــكر وعرفـــــــان

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، أحمد الله وأشكره على أن وفقني لإتمام عملي هذا، فلا يعود الفضل إلا إليه سبحانه.

أتوجه بالشكر الجزيل وعظيم الامتنان إلى أستاذتي الفاضلة (معلمتي)؛

الأستاذة الدكتورة "أحلام بن الشيخ"، التي تفضلت وأشرفت على هذا العمل ولم تدّخر جهدًا في التقويم، وتقديم النصائح، وتذليل العقبات.

كما لا يفوتني شكر كل من ساهم في هذا العمل، وساعدني على إتمامه بنصيحة، أو كلمةٍ طيبة، أو بالدعاء لي في ظاهر الغيب.

نور الهدى سعادة

مـقدمــة

مقدمة:

استغرق الحديث عن المنفى وعلاقته بحضور الذاكرة مساحةً كبيرة إبداعيا ونقديًا، فقد باتت العلاقة تلازمية بين هذين المظهرين في الكتابات الأدبية التي اعتمدت على استدعاء التاريخ والإفَادة منه في مُعالجة القضايا الراهنة، إذ يمكننا القول أن استلهام الماضي وصراع الحاضر في المكان غير المرغوب، كان ولا يزال علامة حاضرة في كتابات كل من يعاني غربة فكرية أو جسدية، وكذلك وسيلة لإبراز حقائق لا يقرّ بواقعيتها غير التاريخ الذي تظهر حقيقته راسخة في الحاضر من منطلق "التاريخ يعيدُ نفسه"، ومن هذا المنطلق، وبرسم هذه العلاقات المعقّدة نسج الروائي محمد موافي روايته "آيات عاشق" بأسلوب فني متميّز وجب التعريجُ عليه بالبحث، ليستقرّ عنوان هذا البحث على الوسم بـ:

" المنفى والذاكرة في رواية آيات عاشق لمحمد موافي"

تنبع الأهمية الموضوعية لهذا البحث من محاولة تقديم العلاقة المركّبة بين الماضي الحقيقي، والحاضر الحقيقي أيضا مجتمعين ضمن لعبة تخييلية لا تسعى لتزييف الحقيقة بقدر ما تحاول تقديمها ضمن تفرّد فكري وطابع فنيّ لا يشبه غير ما يمكن أن نطلق عليه "السهل الممتنع"، حيث استدعي فكّ العلاقات المركّبة لحضور المنفى وقصة "أصحاب الأخدود" -الحاضرة في النص-، والذاكرة التي تؤثث المشهد السردي برمّته، ومساحات الجمع بين نفْيَيْنِ وذاكرتين منفصلتين في نقطة توتّر واحدة ترمي إلى علاقة طاغية الماضي بطاغية الحاضر ...

وانطلاقاً مما سلف تمثلت الإشكالية الرئيسية لبحثنا، والتي عالجت ثنائية المنفى والذاكرة فيما يلي:

- كيف تشكّل ارتباط المنفى بالذاكرة في الرواية؟

وتنازع هذا الإشكال الرئيسي إشكالات فرعية تترتّب على النحو التالي:

- كيف تجسّد حضور المنفى والذاكرة في قصّة هرم بن ظفار؟
- كيف تلازم حضور المنفى والذاكرة في قصّة ماري القبطيّة؟
- هل ارتبط حضور المنفى بالأحداث المتخيلة فقط، أم كان لحضور القصة التاريخية تأثيرا عليها؟
- ما الغاية من الاستغلال الفني لقصة أصحاب الأخدود التاريخية؟

وللإجابة عن هذه الإشكاليات كان لزاما التقيّد بمنهج علميٍّ يستجيب لخصوصية النص، وعليه تم الاعتماد على النقد الموضوعاتي من خلال استقراء التيمتين الأساسيتين في النص وتحديد محاورهما الدلالية المتكررة وتحليلها في سياق البنى المضمونية التي تحتويها، وتم وفقا لذلك ربط مجريات الأحداث التي مكنتنا من فهم واستعاب العلاقة الضمنية بين القصص الفرعية في الرواية وعلاقتها بالقصة التاريخية الواقعية، كما ساهمت أدوات البحث؛ كالتحليل، والمقارنة والاستنباط في التوصل إلى النتائج المرتقبة.

وقد تمّ تقسيم البحث إلى؛ مدخل تناول مصطلحي المنفى والذاكرة في السياقات النفسية والاجتماعية والسياسية، ثمّ فصلين تطبيقيين اعتمدا على محاورة النص مباشرة من خلال بحث التيمتين "المنفى والذاكرة" من خلال الشخصيتين البطلتين "هرم بن ظفار" و"ماري" فجاء الفصل الأول بعنوان؛ المنفى والذاكرة في قصة هرم، واختار الفصل الثاني نفس المنوال بعنوان حضور المنفى والذاكرة في قصة "ماري"، حيث تجسّد سياق العنونة من خلال العمل بمبدأ التقدم والارتداد الذي يعتبر مبدأ أساسيا في كشف التيمات من خلال حفر المضمون. لتخلص الدراسة إلى خاتمة أجملت شتات نتائج البحث.

وتجدر الإشارة إلى أن الرواية حديثة الصدور، فلم يتمّ العثور على بحث علمي تناولها غير بعض الكتابات الصحفية، مما دفع للاجتهاد في هذه الدراسة، غير أن بحثا آخر تناولها في قسم اللغة والأدب العربي بجامعتنا، وخصّها بعنوان المقاومة في "رواية آيات عاشق لمحمد موافي" في حدّ علمي. أما البحث في المنفى والذاكرة فكثير في الشعر العربي والرواية، اخترت من مراجعه ما يخدم البحث وما ذكرته في قائمة المصادر والمراجع.

ومن الصعوبات التي اعترضت البحث صعوبة التقيّد بمبادئ المنهج بادئ الأمر والاعتماد على رؤية ثابتة أحاور بها النصّ، لكن هذه المعضلة اختفت بعد أن قررت

بتوجيه من الأستاذة المشرفة الابتعاد عن الخوض في صراع المصطلح الذي تعلّق بالمنهج وتسمياته، وتم اعتماد رؤية الناقد عبد الكريم حسن التي خدمت البحث خدمة مباشرة.

أخيرا لا يسعني غير تقديم جزيل الشكر، ووافر الامتنان للأستاذة الدكتورة أحلام بن الشيخ نظيرما قدّمته من جهد؛ بدءا من اختيارها لعنوان البحث وتوضيحها أسباب طرحه، ووصولا إلى تصويباتها التي ضبطت مساره، ووقتها الثمين الذي بذلته من أجل إتمامه وإخراجه، وعلى مرافقتها لي طيلة مشواري الدراسي، حيث أكسبتني ثقة أزالت مخاوفي العلمية ومكنتني من تجاوز الصعوبات، هذا وأسأل الله أن يكون في البحث ما يفيد قارئه، والله ما وراء القصد.

ورقلة في:2024/04/26

✍نور الهدى سعادة

المدخل

المنفى والذاكرة في الفهم النظري

المنفى والذاكرة في الفهم النظري

في سياق تأمين فهم نظري متكامل للمصطلحين المفصليين في هذا البحث ألا وهما المنفى والذاكرة، سنتتبعهما نظريا في الإطارين النفسي والاجتماعي، باعتبارهما إطارين علميين مناسبين لدراسة وبحث الإنسان ومحيطه، ومعالجة أسباب تطور علاقاته، وتفسير الظواهر والسلوكات والممارسات التي تعزّز دوريه النفسي والاجتماعي داخل المجتمع، بشكل نستطيع من خلاله تفسير الظواهر النصية التي يستهدفها هذا البحث.

1 -مفهوم المنفى:

تشكل ظاهرة النفي أقسى درجات العزل النفسي والاجتماعي التي تُمارس ضد الإنسان، حيث تحارب هذه الظاهرة جوهر وجوده ضمن فئة مجتمعية معيّنة، فالنفي عقوبة أقرّها القانون القبلي منذ القِدم إما طوعا أو جبرا، بل تعتبر من أشد العقوبات وأقساها، ولنا في تاريخ الصعاليك في العصر الجاهلي صورة واضحة لهذه العقوبة التي كدّرت نفوسهم، وأفسدت انتماءهم، وعزّزت تمرّدهم، فالمنفى يولّدُ لدى الإنسان شعور النبذ والاحتقار لأن "المنفى يحمل في طياته ضربا من الإقصاء والنبذ الدائمين اللذين يظلان يلاحقان المنفيّ ويتربصان به في حلّهِ وترحاله"[1]، حيث يُلاحق المنفيَّ داخل بيئة جديدة معنى الهجنة والغرابة من طرف كلّ من يحيط به في بيئته الجديدة، لذا يجد نفسه في واقعٍ مريرٍ، مجبرًا فيه على اختيار المغادرة إما طوعًا أو جبرًا، وهنا تتولّد أنواع النفي؛ بين النفي الجبري أو الطوعي.

إنّ النفي عقوبة مألوفة في التاريخ البشري، لا سيما وقد وجدت لها تشريعات تؤسسها لتنتقل من خصوصيتها ضمن نظام العشيرة والقرية إلى القانون العام في شكله المعاصر، حيث مسّت هذه العقوبة شخصيات معروفة على جميع المستويات؛ من سياسيين وفنانين وأدباءٍ، وشعراء...، أمثال مفدي زكريا، محمود درويش، الأمير عبد القادر، أحمد مطر، أحمد شوقي، إدوارد سعيد...، ورغم اشتراك كل هؤلاء وغيرهم في ما يخلّفه النفي من أوجاعٍ، وآلامٍ، وحنين، وإحساس بالغربة، وصعوبة في التأقلم، ظهرت جليّا في كتاباتهم، إلا أن أسباب نفيهم اختلفت

[1]-جمعة مصاص: المنفى وتسلط الذاكرة في كتابات مليكة مقدم: روايات: رجالي، الممنوعة، المتمردة أنموذجا، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، جامعة عباس لغرور- خنشلة، الجزائر، م: 12، ع: 01، 2023/03/02، ص: 149

من حالٍ إلى أخرى، ومن شخص إلى آخر، فمنهم من حوّل هذه المحنة إلى منحة دفعته للتحليق بعيدا في سماءِ الإبداعِ والفنِ، ولمع اسمه في ظلمة الألم والحنين.

النفي في اللغة من "نفى الشيء نفياً نحاه، وأبعده، يقال: نفى الحاكم فلاناً: أخرجه من بلده وطرده، وانتفى، ابتعد، والمنفي: مكان النفي"[1]، ويعرّف الطاهر بن عاشور النفي بأنه: "الابتعاد من المكان الذي هو وطنه- للمنفى-"[2]، وتدل كلمة الابتعاد على الانتقال الجسدي من مكان مألوف إلى آخر غير مألوف، وكلا المفهومين ركزا على مبدأ الحركة والتنقل، دون معالجة أسبابها أو أثرها أو نوعها.

والنفي عقوبة حديّة في القرآن الكريم تظهر في النص الصّريح؛ يقول الله تعالى في الآية الثالثة من سورة المائدة: {وإِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَونَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنْ الأَرْضِ}[3]، وهنا جاءت الآية لتبيّن للذين يفسدون في الأرضِ وينشرون الرذيلةِ والفساد وينتهكون أعراض الناس، بعد أن أصلحها الله تعالى بالكتب والرسل، أنّ جزاءهم القتل أو الصلب، والقطع، أو أن يحبسوا، أو ينفوا بعيداً، وهذا العذاب الذي أعده الله في الدنيا، أما في الأخيرةِ عذابٌ شديدٌ إن لم يتوبوا عن معصيتهم، ولعلّ تخصيص النفي هنا وتحديده من بين العقوبات المذكورة قبله تأكيد على شدّته على النفس وعميق أثره فيها.

والمنفيّ هو: "من أقتلع من المكان الذي ولد فيه وأخفق في مدّ جسور الاندماج مع المكان الذي أصبح فيه"[4]، فكثيرًا ما يواجه المنفيون عراقيل وصعوبات في التأقلم بسبب تغير ظروف ونمط المعيشة، ويُخلق لديهم الشعور بعدم الاستقرار والتوتر، وقد يؤدي ذلك إلى أمراض نفسية جسيمة قد تكون نهايتها الاستسلام للموت، فمهما اختلفت دوافع النفي يبقى "اختيارًا غامضًا يختلف عما كان يتوقع منه"[5]، فهو يهدم شخصية المنفيّ ويمحوها تمامًا ويجعل منه إنسانًا ممزقًا ومجردًا من الحقيقة، بسبب الظروف التي تحيط به، والتي تؤدي إلى تغيير

[1] -سامي الصلاحات: معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط: 01، 2007م، ص: 231

[2] -المرجع نفسه: ص: 231

[3] سورة المائدة: الآية: 03

[4] -عبد الله إبراهيم: الكتابة و المنفى، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط: 01، 2012م، ص: 07

[5] -المرجع نفسه: ص: 08

طبيعته. لهذا يجد المنفي صعوبة في إعادةِ بناء شخصية تتناسب مع الواقع الجديد؛ فالمنفيّ "ذات بشرية واعية لكنها ممزقة، هُتكت عذريتها، وخرّبت سويّتها الطبيعية، فلا سبيل إلى إعادة تشكيلها في كينونة منسجمة مع نفسها أو مع عالم أخر"[1]، وفي ظل تحقّق هذا التغيّر ينقسم النفي من حيث الدافع إلى جبري وطوعي، وفي كليهما "تمخض شعور مرّكب من الآمال والإخفاقات، ومن الإقدام والتردد ومن الاندماج والعزلة، ومن الاطمئنان والخوف، ومن النبذ والاشتياق"[2].

ومن جهة أخرى يرى أن طبيعة المنفى معقدة، فهو يتراوح بين الرغبة والرفض "فالمنفى هو تجربة-مهما تفاوت معيار دقتها- تعتري الشخص فيُعرّف نفسه بها. هي حالة منعٍ وحرمان، لا يمكن اقتصارها على المستوى الشخصي، بل هي متعددة الجوانب يلعب السياق السياسيُّ، والاجتماعي دورًا أساسيًا في إنتاجها، وهي متمَركزة في وقتٍ ومكانٍ معين"[3]. لكن مفهوم المنفى يختلف تماماً عند إدوارد سعيد فحسب رأيه"يمكن أن يكون استعاريًا وليس فعليًا وحسب، وطوعيًا وليس إجباريًا فقط، وداخليًا شأنه خارجيا"[4] يعني به ليس من الضروري أن يكون المنفى بنفيّ الإنسان رغماً عنه بعيدًا خارج وطنه، وإنما يقصد بكلمة استعاريًا بالمنفى المجازي، ولا يقتصر على المعنى السطحي للكلمة، لهذا يؤكد بأن مدى "الابتعاد عن الوطن لا يقتصر على ما تشير إليه الكلمة لأول وهلة من بعد، وفصل، وانزياح، وانقطاع"[5]، كما نتجه إليه مباشرة في فهمنا والقول أن المنفى هو الفصل أو الانقطاع التام عن الوطن، بل هو"عدم الانقطاع الكامل وضربًا من الاختلاط بين الانقطاع والارتباط، وعيشًا في العالم الواحد الذي يجمعنا على الرغم من خصوصيتنا التي ينبغي ألا تتحول إلى أصنام نعبدها"[6]، يعني أن له وجهان انقطاع وارتباط في ذات الوقت، والارتباط غالبًا ما يكون عالقًا في ذاكرة الفرد من أشخاص وأحداث وأماكن تجعل الفرد يعود بذاكرته إلى الوطن الأم والحنين إليه، كما أن المنفى قد يكون ضربًا من الانقطاع والارتباط، فهنا إشارة إلى أن معنى المنفى لا يقتصر على الابتعاد الكلي للجسد فقط بل هناك وتدٌ خفيّ لا

[1]-المرجع نفسه: ص: 08

[2]-عبد الله إبراهيم: الكتابة والمنفى, ص: 08

[3]-السيد محمد الشامي، العالم كبنية سياسية نافية، مفهوم ياسين الحاج صالح عن المنفى. جامعة مانشستر، 17 أكتوبر 2020، https://www.researchgate.net/publication/344711549 ، 2024/04/27. على الساعة 12:09

[4]-إدوارد سعيد: تأملات حول المنفى, تر: ثائر ديب, دار الآداب, بيروت, لبنان, ط: 01 , 2004م, ص: 14

[5]-المرجع السابق: ص: 14

[6]-إدوارد سعيد: تأملات حول المنفى, تر: ثائر ديب, ص: 14

يدركه إلا المنفيّ في حد ذاته باعتباره شعور داخلي يخصه، لأن النفي قد لا يكون رغبةً وحبًا في الابتعاد، وإنما دافع يجد فيه الشخص مجبرًا لا مخيرًا لدوافع كثيرة مختلفة منها السياسية، الدينية وغيرها من الأسباب ...

إذن المنفى هو "إبعاد عن الوطن، ونبذٌ، ونزعٌ للآلفة و مكان مؤقت يقع بين زمكانين: أحدهما ماضٍ في الوطن والأخر حاضرٌ يتطلع للمستقبل خارجه... "[1]، لكن كل هذا لا ينفي الوجه الخفي للمنفى، وكيف اضطر الآلاف أو مئات الآلاف إلى الغربة داخل أوطانهم، كما هي الحال في فلسطين و غيرها من الدول العربية.

1-1 أنواع المنفى:

نميّز في المنفى بين نوعين؛ طوعي وجبري، وكلاهما يّولد لدى الإنسان شعورا بالغربة نتيجة الابتعاد عن الديار، فالجبري هو الذي فرضَ على الفرد رغماً عنه، ولا يشترط بالضرورة أن يكون بنفيّه خارجًا، لأن الفرد يمكن أن يكون سجينًا في موطنه ولا حق له بممارسة حقوقه المشروعة. وفي الاتجاه المعاكس نجد حالات مختلفة، فمنهم مثلاً من يرى في المنفى آفاقا للتجديد والتغيير، قصد تحقيق مكاسب وغايات تعذر عليه بلوغها في موطنه، فيختار الخيار الثاني أي النفي طوعا؛ وبين الخيارين "يتمخض عن كل ذلك شعور مرّكب من الآمال والإخفاقات، ومن الإقدام والتردد ومن الاندماج والعزلة، ومن الاطمئنان والخوف، ومن النبذ والاشتياق"[2]، وهذا راجع إلى نفسية المغترب ونجده دائما ما يعود بذاكرته إلى ماضيه ليستشعر الأمان، وليخفف شعور الحنين الّذين يتربصان به.

2-مفهوم الذاكرة:

الذاكرة هبة مهمّة لدى الإنسان، خلقها الله عز وجل بحجم وشكل مناسبين لخلقته؛ حيث يزن مركزها في المخ حوالي "ثلاثة أرطال وهو أقل من وزن الجلد الذي يغطي جسم الإنسان، إلا أنه يمثل مصدراً لكل سلوك"[3]، فبالرغم من صغر حجمه فهو يمتلك قدرات هائلة على الاحتفاظ واستقبال أكبر قدر ممكن من

[1]-جمعة مصاص: المنفى وتسلط الذاكرة في كتابات مليكة مقدم: روايات: رجالي, الممنوعة أنموذجا, ص: 149

[2]-عبد الله إبراهيم: الكتابة والمنفى, ص: 08

[3]-عزيز محمد السيد: أسرار الذاكرة الإنسانية وإمكانات العقل البشري, دار النشر للجامعات, القاهرة'ط: 01 , 2014م, ص: 11

المعلومات ويرسلها حيث المكان المناسب في زمن أقل من قدرة الفرد على قياسه. ثم للفرد أن يستجيب تبعاً لهذه المعلومات"[1] وقت ما يشاء. وعليه فالذاكرة هي ما يترسب في الذهن من أفكار وذكريات، يتم استرجاعها بعد مدّة من الزمن. أو هي عبارة عن شريط راسخ في الذهن، وهي مركّب معنويٌ لا يمكن رؤيته بالعين المجردة، فلا يمكننا " الإمساك بها لذلك لابد من النظر إليها باعتبارها عملية وليست شيئًا"[2]، إلى جانب هذا هناك من يعد ضبط مفهوم الذاكرة أمرًا صعبًا ومعقدًا وهذا راجع إلى طبيعة "ارتباطها بعمليات الانتباه والإدراك والتخزين والاستجابة"[3] فذهب العلماء إلى تعريفها وفقًا لما يرونه، ومن أبرز المفاهيم التي وردت في هذا السياق ما يلي:

- ✓ يعَتبرُ سولسو (solso) الذاكرة دراسة لمكونات عملية تتجسد في التذكر والعمليات المعرفية التي ترتبط جميعا بوظائف هذه المكونات.[4]
- ✓ ويعرفها كل من بارون (baron) وفيلدمان (feldman) ؛ "الذاكرة على أنها دراسة القدرة على الاحتفاظ بالمعلومات وتخزينها واسترجاعها وقت الحاجة"[5]
- ✓ وعند هابرلاندت (haberlandt) نجد أن الذاكرة هي: "القدرة على تذكر ما تعلّمه الفرد سابقا"[6]

وغيرها من المفاهيم المتقاربة لبعضها البعض في المعنى، على أنها قدرة معرفية أو علمية تقوم بتخزين كمٍ من المعلومات ليتم استرجاعها فيما بعد، أو هي عملية عقلية تحتفظ بكل تفاصيل حياة صاحبها في الماضي، ليسترجعها مستقبلاً وقت الحاجة؛ حيث "لا يوجد تعريف واحد للذاكرة نظرًا لتباين وجهات النظر، ولكنه يعرفها على أنها القدرة على التمثيل الانتقائي للمعلومات التي تميز خبرة الفرد والاحتفاظ بالمعلومات بطريقة منظمة من أجل إعادة استرجاعها في المستقبل"[7]،

---

[1] المرجع نفسه: ص: 11

[2]-المرجع نفسه: ص: 51

[3]عدنان يوسف العتوم: علم النفس المعرفي، النظرية والتطبيق، دار المسيرة للنشر و التوزيع والطباعة، دط، دت، ص: 128

[4]-ينظر : المرجع نفسه: ص: 128

[5]-المرجع نفسه: ص: 128

[6]-المرجع نفسه: ص: 128

[7]-المرجع نفسه: ص: 128-129 (نقلا عن عبد الله, محمد(2003). سيكولوجية الذاكرة. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

لهذا قيل عنها "أجمل الحدائق، وهي بذور الماضي التي تفتح في الحاضر والمستقبل"[1]. فهي نعمة لا يمكن استبدالها أو تعويضها بأي ثمن لهذا تعتبر "إحدى مواهب الإنسان، إذ بدونها لا يكون هناك تعلم من الخبرة أو توظيف عقلي، أو نمو في اللغة، أو أي من الخصائص التي تميز الإنسان باعتباره إنسانًا".[2] ونظرًا لأهميتها البالغة ودورها المميز شغلت اهتمام العديد من الدارسين والعلماء "فكان لجهود إبنكهاوس (Ebbinghaus) مع نهاية القرن التاسع عشر الفضل في بداية الجهود البحثية"[3] المتخصصة في دراسة وتشخيص الذاكرة، وقد خصص لها كتابا عنوانه "عن الذاكرة ((On Memory)، وقد ركز إبنكهاوس على دراسة نمو الذاكرة وقياسها من خلال اختيار القدرة على تذكر مقاطع لفظية ذات معنى أو عديمة المعنى"[4]. وقدّم "جيمس(james) مع بدايات القرن العشرين جهدا علميا كبيرا في التمييز بين الذاكرة الأولية(القصيرة)، والذاكرة الثانوية الدائمة(الطويلة)"[5]. فذهب العلماء إلى تقسيم المراحل التي تمر بها الذاكرة الإنسانية إلى ثلاث مراحل هي: [6]

- ✓ مرحلة الترميز: وهي إعطاء معنى للمثيرات الحسية التي تكتسب من خلال السمع والتكرار، و التنظيم و الرؤية. . . إلخ
- ✓ مرحلة التخزين(الاحتفاظ): وهي تخزين قدر هائل من المعلومات سواء في الذاكرة الأولية الطويلة، كي يتم استخدامها وقت الحاجة.
- ✓ مرحلة الاسترجاع (التذكر): أخر المراحل وهي عبارة عن استثمار للمرحلتين السابقتين -الترميز والتخزين- في الذاكرة كي يسهل استدعاء الخبرات السابقة.

وبناء على ما سلف؛ كيف للإنسان أن يمتلك قدرة على تذكر الأحداث المهمة في حياته بدون ذاكرة تخزن ماضيه! من المؤكد سيفقد الإحساس بهويته، ولن يتمكن من تخزين المعلومات التي يكتسبها في حياته اليومية، مما سيتركنا على الدوام بذكاء طفل حديث الولادة، فالذاكرة تتألف من معلومات مخزنة في الدماغ يمكن

[1] -مايكل يوسف سلوانس: ذاكرة الإنسان، ص: 01
[2] -عزيز محمد السيد: أسرار الذاكرة الإنسانية وإمكانات العقل البشري، ص: 51
[3] -عدنان يوسف العتوم: علم النفس المعرفي، النظرية والتطبيق، ص: 127
[4] -المرجع نفسه: ص: 127
[5] -المرجع نفسه: ص: 127
[6] -ينظر: عدنان يوسف العتوم: علم النفس المعرفي، النظرية والتطبيق،ص: 127-128

استرجاعها. وبفضلها يمكننا التعلم بسرعة من التجارب، وبناء الثقة والتفاهم بين أفراد المجتمع، وتطوير المهارات عن طريق التدريب وبناء الأفكار. وليس ذلك وحسب، بل تكسبنا حياة ذات مغزى بالسعي وراء تحقيق الأهداف والغايات.

ومن خلال الطرح النظري لمصطلحي المنفى والذاكرة سنعالج حضورهما الفني في رواية "آيات عاشق لمحمد موافي" المفعمة بالتيميتن التين تحركتا بشكل متواتر في النص، مما استدعى تسليط ضوء الدراسة والبحث حولهما.

الفصل الأول: حضور المنفى والذاكرة في قصة "هرم بن عبد الله الظفاري"

1- دافع المنفى وعواقبه في قصة هرم بن عبد الله الظفاري

1- 1ارتباط الذاكرة بالشخصيات والأماكن

1-2- 1ارتباط الذاكرة بالأشخاص

2-1-2 ارتباط الذاكرة بالأماكن

حضور المنفى والذاكرة في قصة هرم بن عبد الله الظفاري

أبدع الروائي "محمد موافي" في روايته التاريخية " آيات عاشق" حين استغل قصة أصحاب الأخدود التي تحكي قصة غلامٍ جعل بلدة بأكملها تؤمن، بعد أن كانت تعيش في ظلامٍ دامس، لكن لا بدَّ من الإشارة إلى أن الرواية أخذت مادتها التاريخية منها فقط، لتبدع المخيّلة الأدبية في نسج خيوط قصة عاطفية متضمّنة حوّلت التاريخي الصّرف إلى لوحة فنية مبتدعة، وعليه فالرواية تحكي معاناة بطلين عاشا صراعاً عنيفاً مع السلطة الحاكمة في موطنيهما الأم، لينتهي بهما المطاف إلى الهروب بغية النجاة والإحساس بالأمان، فكان النفي الطوعي لبلاد بعيدة أحسن خيار مؤلم تتخذه هذه الشخصيات التي عبّرت عن صعوبة ظروف وأسباب نفيها، الممزوج بالذكريات المثقلة في كامل فصول الرواية، بشكلٍ لافتٍ يستدعي التوقف والدراسة.

1-دافع المنفى وعواقبه في قصة هرم بن عبد الله الظفاري:

1-1 دافع المنفى:

"هرم" هو الابن البكر "لعبد الله الظفاري" والأخ الأكبر لفتى يدعى "الثامر"، اجتمعت في ه"رم" ملامح الذكاء والشجاعة وسرعة التعلم وحب الترحال واستكشاف ما حوله، تقطن أسرة "هرم" مدينة ظفار*، وكان يحكم ظفار ملك ظالم يدعى "ذي شناتر"، ملك مريض النفس، شرير أهمل تعاليم دينه اليهودي، فرفع من شأن السحرة والمفسدين، وطغى في البلاد طغيانا عجيبا. ليخلفه حاكم فاسد آخر هو "ذو نواس" يكره كلّ ذي حكمة وعقل وحكمة من الشباب المتنورين على أيدي الكهنة، فكان "هرم" وشقيقه "الثامر" هدفين واضحين للحاكمين الضالمين لأن أسرتهما كانت ذات شأن بين القوم، ولأن والديهما كان حريصا على تعليمهما حرصا شديدا.

تسبّب خوف "عبد الله" على الفتيين في دفع "هرم" –الأكبر سنا والأكثر معرفة- إلى الفرار من "ذي شناتر" والخروج من موطنه، واستغل الروائي اختيار "هرم" –الشخصية المتخيلة- للنفي طوعا عن موطنه المثقل بمظاهر الظلم والاستبداد، قائلا: **"أي بنيَّ ... اضرب في أرض الله، ولن يصيبك إلا ما هو مقدور، ولن**

*- تقابل ظفار مدينة نجران التي وقعت فيها قصة أصحاب الأخدود

يصرف عنك إلا ما لم يكن لك. خذ من الدنيا ولا تأمنها وزن كلامك كما تزن سلعتك، وانتق ألفاظك كما تنتقي الجيّد من بضاعة السوق، واكس كلماتك بعلمك، واحفظ علمك بترديده وارض بما يختاره الطريق، ينقذك الطريق"[1]، ولم يكن هذا الاختيار هنا عبثياً.

يجسّد هذا الخيار صورة هروب المعارضين في عالمنا العربي، حيث رافقت الرواية تفاصيل ما حدث إبان ما يسمّى "الربيع العربي" الذي خرجت فيه الشعوب العربية في بعض الدول ضد أنظمتها الظالمة بين سنة 2010 وإلى غاية 2013 وبعضها لا زال يعاني ترددات ذلك الربيع إلى اليوم، وقد شكلت هذه الثورات في حقيقتها "حركات ثقافية تميل إلى تعديل الأفكار الأساسية التي تكوّن الثقافات للإنسان"[2] والتي كانت، ولا تزال لم تحقق رغباتها الكاملة في العيش بحرية ووسط عدالة اجتماعية في أوطانها.

2-1 عواقب المنفى:

بعد الحرمان من الأهل والخلان والوطن، ظهرت في الرواية عواقب موضوعية أخرى تجسدت من خلال منظور الروائي على النحو التالي:

- **الإحساس بالغربة في كنف الأمة**: لم يفلت الشعور بالأذى والظلم والاستبداد المواطن العربي أبدا، بل أنه نفي طوعا ليعاني التميّيز العنصري العربي بعد أن حفظت الذاكرة العربية من أيام المناداة بالقومية والوحدة العربية :[3]

"بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمـــــــن ومن مصر لتطوان

هذا النشيد الذي لم يترجم في الواقع بالشكل الذي كان يتصوّره العربي، وهو ما مثلته شخصية "هرم" التي لم تكن لتتوقّع بأنّ أول الطريق إلى المنفى الاختياري سيشكّل صدمة كبرى، فبعد مغادرته لوطنه تعرّض لمحاولة السرقة والخطف من قبل لصوص يشاركونه لغته وهويته فانفجر صارخا: **"أنا عربيٌّ وابن عرب كرام، ربما يكون بيننا نسبٌ أو جدٌ بعيد مشترك، أنا عبد الله بن عبد الله الظَّفاري،**

[1]- محمد موافي: آيات عاشق نشوة الطلياني البيرتينو فيرو، دار العين للنشر، القاهرة، ط: 01 ، 2022م, ص: 75.
[2]-صلاح جواد شُبّر: ثورات الربيع العربي، نظرة من الداخل. وعامل ثقافة التشيع، دار روافد، دط، دت، ص:79
[3] - القصيدة للشاعر فخري البارودي والتي تفاعل فيها بتجسيد الوحدة العربية.

وإنّي وريث إمارة وجدير بالملك، أنا ابن عرب كرام مثلكم، ولا يصح أن يأسر العربي أخاه، بالله عليكم لا تؤذوني"[1].

ولا تمثّل هذه الصرخة غير بداية بسيطة أمام الارتباك الذي حدث لهذه الشخصية وأزماتها المتكررة تباعا من وسط الأحداث وإلى آخرها،

جسّدت هذه الأزمات المتردّدة في النص محور صورة العربي في العصر الحديث، فبين النفي الطوعي أو الجبري ظهر صراع "هرم" محتدما حبيس ماضيه وذكرياته المتعلقة بموطنه، ومن هنا سنحاول تسليط الضوء على حضور المنفى في تفاصيل قصة "هَرم"، التي حاول الروائي إسقاط أحداثها على واقعنا المعيش، وعلى أحداث الربيع العربي التي كانت نتيجة الركود الاقتصادي، وانتشار الفساد، وغياب الاستقرار والأمان، وقمع الحريات...، وغيرها من الأسباب ممّا "يعكس معاناة الفرد العربي في وطنه وخارجه، وبخاصة أن الفرد العربي اليوم يملك وعيا قاده للبحث عن حياة أفضل، وهذا ما جعله في كثير من الأحيان يغادر وطنه طوعا أو كرها للبحث عن الحرية والأمان والعيش الكريم"[2].

ونخلص هنا إلى أنّ الصدمة النفسية التي تكوّنت بفعل سبب النفي بقي مؤشرها تصاعديا بفعل الأحداث المتلاحقة التي خَبِرَها "هرم" أثناء رحلة النفي الطويلة حالاً ومرتحلا من مكان لآخر.

- **الحرب على العقيدة:** بُنيَت المادة التاريخية للرواية على قصة أصحاب الأخدود التي حدثت في نجران* المذكورة في القرآن الكريم، والتي تحكي قصة استبداد الملوك، وممارسة الحكم الفاسد، وكل وسائل العنف تجاه "فئة آمنت بربها، واشتعلت حقيقة إيمانها، ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين مستهزئين بحق "الإنسان"في حرية الاعتقاد بالحق، والإيمان بالله العزيز الحميد، وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلى الطغاة بآلام تعذيبها، ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالحريق"[3]، وهذا ما تحكيه أحداث الرواية التي تبدأ من مدينة ظفّار التي حكمها ملك مستبدٌ يدعى "ذي شناتر"، وهو ملك فاحش الطبع، شاذ السلوك **"لم**

---

[1]- الرواية، ص: 130

[2]-فريدة مقلاتي: المنفى واشتغال الذاكرة في رواية"صيف العدو"للروائية شهلا العجلي، مجلة العاصمة، مجلة سنوية محكّمة، جامعة خنشلة، الجزائر، م: 13، 2021م، ص: 18.

* اختلفت الآراء حول وقوع مدينة نجران بين قائل في جنوب الحجاز، وآخرٍ في اليمن، وبين هذا وذاك لا توجد أية دليل يثبت مدى صحة المعلومتين.

[3]-سيد قطب: معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط: 06، 1399هـ-1979م، ص: 173-174

يقصد البنات، بل قصد الذُّكران من أبناء وجوه القوم، ما إن يسمع عن نجابة غلام من بيت كريم أو جماله، يتحيَّن الفرصة فيفحش به، فيبقى الغلام وأهله وكل القبيلة منكسرين أذلاّء، خاضعين، لا يعصون الملك ما أمرهم ويؤدون له ما يريد"[1]. وفي تلك الأجواء نمى فتى نجيب ذكيّ مثقف يدعى "هرم". وهو الشخصية الرئيسية والمحورية التي حرّكت معظم أحداث الرواية من البداية إلى النهاية.

ارتبط منفى "هرم" بشدّة بطش الملك الفاجر، فهذا الملك يخشى على ملكه من كل رجل واع وحكيم وذو جاه يقوّض ملكه، وتتجسد في "هرم" كل تلك الصفات التي يخافها "ذي شناتر"، "فهرم" نال التعليم الكامل على يد "الكاهن"؛ **"من الخط وأخبار من سبق ومنازل القمر وظانّ الريح، وخبايا السحر وعجائب الكلام"[2].**

وكذا انتماؤه إلى عائلة مرموقة لها مكانتها في المجتمع مصدر قلق أيضا، فوالده ذو جاه وحكمة معروف بها بين قومه، ولما بلغت سيرته الملك "ذي شناتر" الذي "قتل خيارهم وعبث ببيوت أهل الملك منهم، وكان رجلاً فاسقاً يعمل عمل قوم لوط، وكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه في مشربة قد صنعها لذلك"[3]، فما كان على "هرم" إلا المغادرة رغماً عنه، تلبية لنصيحة "الكاهن" فأمره أن يذهب إلى أبيه ويخبره؛ **"أن الملك لن يهدأ في طلب المطلوب وهتك القلوب، وإن ابنك بارٌ مبرور ورائد يُسلبْ ولا يسلبُ ويطلبُ ولا يطلب، وقسماً بالليل والنهار، ليس أمامه إلا الفرار "[4]**

أحس "هرم" بخطورة الأمر، خصوصاً حين أصّر الكاهن على مغادرته مخاطباً إياه: **"يا غلام إن لك عيناً سوف ترى، وأمراً لن يهـــــدأ ولو بلغ مستقرّه. جهز راحلتك واضرب في الأرض"[5]** ، لكن ما إن وصل "هرم" إلى بيته أدرك أن أباه على علمٍ بذلك، فوجد ضيفاً عنده وهو رجل من كبار القوم. سمع هرم الرجل يقول: **"يا أبا هرم، أداخ ذو شناتر القبائل ودان له الجميع، أذلّ كل من يشتمُّ فيه**

[1]-الرواية, ص: 72
[2]- الرواية، ص: 46
[3]- وهب بن منبه، تيجان ملوك حمير، تح: مركز الدراسات اليمنية، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية الجمهورية العربية اليمنية صنعاء، ط: 01، 1347ه، ص: 211
[4]-الرواية، ص: 60
[5]-الرواية، ص: 66

مظنَّة المنافسة، وقرّب كل من يماشي طموحه الشريرة. لا يوقفه شيء،ولا ينفع شيء، إنه مثل سيل العرِم، يكسر النفوس ويأكلها"[1]

شبه الرجل بطش الملك وعنفه بالسيل العرم الذي ضرب أهل سبأ، بسبب ملك يدعى بسبأ، وكان سيد تلك البلاد، وتبعته الكثير من القبائل كانوا يعيشون في نعم عظيمة وأرزاق واسعة ومن قدرة الله سبحانه وتعالى أن جعل لهم جنتين عن اليمين وعن الشمال. فدعاهم الله عز وجلّ إلى أن يأكلوا من رزقه، وأن يحمدوه على نعمه. إلا أن ردهم كان بالصد ورفض النعم التي أعطيت لهم وكفروا بالله، وكذبوا برسله، فجاء عقاب الله تعالى لهم؛ حيث دمر عليهم سد مأرب. وأرسل عليهم ما كان وراءهم من ماء فكان سيلاً عظيما مدمرا، وصفه الله في القرآن الكريم بالسيل العرِم. من هنا يقول "عبد الله" والد "هرم": **"ويلٌ لمن لمع في بلدٍ فاسد، بقدر لمعانك، تقصده سهام الدنيا"[2]**، فاختار والده أن يبعده عن قريته خوفًا عليه من شر الملك، فقال: **"رأيت أن أبعث بك بعيداً لفترة من الزمن لا يعلم أحدٌ مداها، وأعتذر إليه لو أرسل في طلبك بأنك سافرت لرعاية تجارتنا"[3].**

يجد "هرم" نفسه مرغمًا على الرحيل وقلبه معلق بوطنه و بأبيه وأخيه الصغير، مغادرًا رغمًا عنه إلى وجهة مجهولة، لا يعلم موعد العودة إلى الديار، يقول "هرم" : **"رحلت مرغماً عن ظفار، انطلقت بعيدًا، بعيدًا جدا انطلقت مثل سهم رماه قوس مشدود في كفّ رامٍ طائش وعابث "[4].** تبينُ وضعية هروب "هرم" أولئك الذين اعتبروا المنفى مفتاحا للوصول إلى الحرية التي افتقدوها في ديارهم، "فالخروج من البيت من أجل الحرية هو فِعْلُ حريَّة رغم قسوته. فالمنفى في حد ذاته قد يكون نواةً للحرية"[5] لدى الكثير من المحرومين، وبالأخص للذين يعانون من الضغوطات السياسية مثل حال بطل الرواية.

-البقاء حبيسا في الماضي: بعد رحيله من ظفار، انطلق "هرم" مباشرة في خوض رحلته لتحقيق أهدافه الجديدة التي انحسرت في تنمية ثروة عن طريق

---

[1]-الرواية، ص: 66
[2]-الرواية، ص: 68
[3]-الرواية، ص: 74
[4]-الرواية، ص: 48
[5]- السيد محمد الشامي، العالم كبنية سياسية نافية، مفهوم ياسين الحاج صالح عن المنفى. جامعة مانشستر، 17 أكتوبر 2020، https://www.researchgate.net/publication/344711549 ، تمت المشاهدة يوم 2024/04/22. على الساعة 11:35

التجارة، مستغلا حكمته وذكاءه، محاولة للتأقلم مع الوضع الجديد، لأن "أهم ما يواجه المنفيُّ في بيئته الجديدة ويكون عبارةً عن وصل ما انقطع من الحياة، هو استئناف الحياة، أو ربما العمل على أن يكون اللجوء فرصةً لبدايةٍ مختلفة" [1]. وخلال رحلاته مرّ "هرم" بعثرات كثيرة، تعلّم منها كيف يكون السعي لكسب المال، فتعززت خبرته ونمت حكمته، يقول في ذلك: **"أراجع رحلتي التي ركبت فيها البحور واشتريت وبعت وربحت، ثم سرقت، ابتسمت وأنا أتذكر مصير لصوص خطفوني، مشهد أيامي مع كُليْب الثغلبي، ومقتله بهذه الخسَّه،الحرب التي علمت بأشعارها بين ثغلب ويكر، اللؤلؤة التي حفظها لي ثعلب قبل موته."**[2]

ثم يمضي بتذكر وصايا أبيه قبل رحيله وحزنه على ما ضاع منه عندما تمت سرقة متاعه. وكيف ساقته الدنيا لحبيبته "ماري ترتيليان" وابنها "وضّاح".

-العودة إلى الوطن وتواصل الإحساس بالنفي:

في المنفى الطوعي جرى لقاء "هرم" "بماري ترتيليان" في مدينة سميرناه، لتبدأ قصة حبهما التي آنسته أيام التعب والشقاء منذ رحيله عن ظفار، لتصبح سميرناه بيته ووطنه البديل. اتسعت فيه تجارته أكثر مما سبق، إلى أن تغيّرت الأحوال رأسا على عقب حين وصله خبر مقتل أخيه "الثامر" على يد الحاكم "ذي شانتر". ترك "الثامر" وراءه ولدًا سماه "عبد الله"، وأباه الحزين الذي ضعف بصره بسبب حزنه وبكائه الدائم على موته وفراق "هرم"، كما صاحب ذلك أيضًا خبر هلاك "ذي شناتر" الذي انتظره "هرم" طويلا، لكن خبر موت أخيه كان الأكثر ألماً، فقرر العودة إلى ظفار باحثًا عن والده، وعن أمانة "الثامر" التي حدثته عنها العرافة بالإسكندرية. لتعود أحداث الرواية إلى بدايتها.

تعد نقطة الرجوع إلى ظفار نهاية رحلةٍ طويلة دامت أكثر من عشر سنين، وبداية رحلة هروب مرة أخرى من ملكٍ جديد هو "ذو نواس" والذي كان سابقًا صديقًا "لهرم"، وهنا يظهر استغلال الروائي لأحداث حقيقية وقعت في قصة أصحاب الأخدود حيث تبيّنت القدرة الإبداعية للروائي في ربط أحداث واقعنا، وما يحدث في حاضرنا وبين "الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين وتحرّرت وانطلقت إلى ذلك الأوج السامي الرفيع، الذي تشرف به البشرية في جميع الأجيال

[1]-المرجع نفسه

[2]-الرواية، ص: 150

والعصور"[1]. إذ يشير الروائي في بداية الرواية إلى "الكاهن" الذي علّم "هرم" وكان مقربا إليه، ليصبح في الأخير مقربًا للملكِ "ذي نواس" الذي كان دائم اللجوء إلى السحر ليصل إلى سدّة الحكم؛ " استخدم السحر لهذا الغرض وبالغ في ذلك حتى جعله من أركان حكمه، وكان لا يأخذ قرارًا مصيريًا إلاّ إذا لجأ إلى ساحر من كبار السحرة في مملكته يستشيره"[2]. على إثر هذا "نال الساحر عند الملك منزلة خاصة، ربما لم يصل إليها رجلُ آخر في المملكة"[3]. فجاء في الرواية: **"مضى الرجل الذي علمت بأنه صار كاهن الملك المقرب، وأنه انتقل من ظفار فسكن جبلاً قرب نجران"[4]**. وجاء على لسان "صهيب" رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "كان مَلِكٌ فِي مَنْ كَانَ قَبْلُكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ. فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلمَلِكِ: إنّي قَدْ كبِرتُ، فابعث إليَّ غُلاماً أُعَلِمُهُ السّحرَ، فَبَعَثَ إليهِ غُلاَماً يُعَلّمُه"[5]. يقابله المشهد المذكور من الرواية؛ **"أيها الملك الجَسُور ذو الخير الكثير، بل بلغ مني الدهر ما بلغ، شرب من دمي ذئب الزمن وولغ. وإن أيام عمري معدودات، كذا نبّأتني الجاريات. وإن إخلاصي للملك ذي نواس، وحرصي على ما ينفع الناس، حداني إلى أن أطلب منكم غلاماً يتعلم مني، ويكون في خدمتكم وحُسْن ظنّي"[6]**.

بعد أخذٍ وعطاءٍ بين الملك "ذي نواس" و"هرم"، الذي أصبح وليّ أمر ابن أخيه "الثامر"، رضي "هرم" أن يتعلم "عبد الله" السحر على يد "الكاهن"، وبمضيّ الأيام صادف الفتى "عبد الله" راهبا غيّر تفكيره "فقَعَدَ إلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ، فَأَعْجَبَهُ"[7].ويمثل هذا الراهب "فيميون" في الرواية، والذي أرّخ له تاريخيًا بأنه من أدخل أهل قرية نجران للنصرانية, ليصبح كل من (فيميون، وعبد الله) عدوّيين للملك "ذي نواس"، بسبب نشرهما للنصرانية.

تأثر "عبد الله" ب"فيميون" واعتنق المسيحية على يديه. كما يرد مشهدٌ مشابهٌ في الرواية عن "الثامر" بن "عبد الله"؛ **"يقول الناس: إن عبد الله تقدم للسبع وقذفه بحجر فوقع صريعاً. ومرّ الناسُ، ثم مضى عبد الله معرضاً عن دروس الكاهن.**

---

[1]-سيد قطب: معالم في الطريق، ص: 174-175

[2]-منير عرفه: أصحاب الأخدود، موسوعة القصص القرآني، دط، دت، ص: 03

[3]-المرجع السابق: ص: 03

[4]-الرواية، ص: 450

[5]-أبو عبد الملك أحمد بن فتحي البكيري: قصة أصحاب الأخدود، فوائد وعبر، دط، دت، ص: 03

[6]-الرواية، ص: 450

[7] -أبو عبد الملك أحمد بن فتحي البكيري: قصة أصحاب الأخدود، فوائد وعبر، ص: 03

وذاعت سيرته و بركاته في كل نجران، يشفي الناس من أمراضهم ويعيد إليهم أبصارهم ويخبرهم بما ضاع منهم"[1] .

وقيل في الحديث: "فَبَيْنَماَ هوَ كَذَلِكْ إِذْ أتى عَلَى دَابةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَستْ النّاسِ، فَقَالَ: اليَومَ أعْلمُ ألسَّاحِرُ أفْضَلُ أَمْ الرّاهبْ أَفْضَل؟ فَأَخَذَ حَجَراً، فَقَالَ: اللهمّ إِنْ كَانَ الرّاهبِ أَحَّبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السّاحِرْ فَاقْتُلْ هَذهِ الدّابة، حَتّى يَمْضِيَ النّاسَ، فَرَماهاَ فَقَتَلَهاَ ومضى النّاس"[2]، وعرف بأنه"يبرئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، ويُدَاوِي النَّاسَ مَن سَائِرِ الأدْواءِ"[3]، والغرض من كل هذا بيان "النتيجة الهائلة بالسبب البسيط. مثلما قتل الغلام الدابة التي كانت تسد على الناس الطريق بحجر صغير. وهو المعنى المتحقق كذلك بهزيمة الملك ووقوع ما كان يحذره بسبب هذا الغلام الصغير"[4].
استغل الروائي هذه القوى التي وهبها الله "لعبد الله بن الثامر" فكانت سببا في هجوم جنود الملك على "بيت عبد الله" بأمر من "ذي نواس" للقبض عليه أمام "هرم" الذي لم يستطع فعل أي شيئ لإنقاذه، كما تم القبض أيضا على "فيميون":

"أنت سبب كل مصيبة في نجران.
بل جعلني الربُّ سبباً للإيمان.
أنت علَّمته مما آتاني ربي من بركات
بل هو السحر.
أعرف الإيمان ولا أجيد السحر
ألْعنِ المسيح
كيف ألعن من ذقت الإيمان بكلماته والسعادة"[5]

لينتهي المطاف "بفيميون" بالموت ذبحًا بسيف الملك الفاجر، بعدها جاء دور "عبد الله"، حاول "هرم" انقاذه لكن محاولاته باءت جميعا بالفشل: **"تناول الملك سهمًا وشدَّ قوسه لآخره وأطلقه باتجاه عبد الله"[6]**، إلا أن كل رمياته فشلت رغم قرب المسافة بينهما، وتظهر حيلة وفطنة الفتى في استغلال الموقف للقضاء على الملك

[1]-الرواية، ص: 475
[2]-أبو عبد الملك أحمد بن فتحي البكيري: قصة أصحاب الأخدود، فوائد وعبر، ص: 04
[3]-المرجع نفسه: ص: 04
[4]-رفاعى سرور: أصحاب الأخدود، مطابع دار الطباعة والنشر الاسلامية، القاهرة، ط: 05، 4736هـ، 1995، ص: 61
[5]-الرواية، ص: 476
[6]-الرواية، ص: 447

الظالم بأن يطلب منه النطق باسم ربه كي يستطيع قتله ففعل الملك دون تفكير، فأصاب السهم الفتى، إلا أنه بهذه "الكلمة فتح الغلام للناس باب الإيمان. فقد كانوا يعرفونه محبًا لهم وساعيًا لمنفعتهم ومداويًا لأدوائهم وما بقي إلا أن يعرف الناس أن للغلام ربًا هداه إلى محبتهم وأذن له بشفائهم"[1] .لتنتهي قصة الغلام الصالح على يد فاجرٍ يحسب نفسه المنتصر، لكن مشيئة الله أعظم منه.

ومنه نستنتج أن علاقة منفى "هرم" وهروبه ماهو إلا تجسيدٌ للواقع المعيش، وبالتحديد الواقع العربي المؤلم، الذي تجرع مرارة الحياة. وتذوق طعم الظلم والخذلان والتهميش والتمييز العنصري، ومعاناة الفقر والجهل التي دفعت كثيرًا من شبابنا إلى طريق مسدودة. وتسليط الضوء على الأوضاع المزرية التي آلت إليها البلدان العربية جراء الحكم السياسي الفاسد، مسقطًا كل أحداث الرواية حولها برمزية ملفتة، يقول؛ **"شهدت المحرقة، شهدتها كلها، احمل لوزة، أشعر بها ترتجف، هل شمَّت لوزة رائحة اللحم البشري تملأ السماء؟أم رأتِ الرَّماد حزينًا يُغطي الأرض دخانه؟"**[2]

لقد مثلت اللوزة وهي آنية فخارية في فوهتها شعلة من نار خافتة لا تكاد تضيء ما حولها، مثّلت بداية اليقظة التي تنطلق منها الأحداث، فكلما غابت اللوزة عن الشخصية الرئيسية أحسّت بالتيه، وهذا ما يحدث في واقعنا المعيش، إنها جذوة البحث عن التحرّر التي باتت مطلبا عربيا يعبّر عن قوة صمود الحق أمام الباطل، وأن الخير في الأخير منتصرٌ دائمًا مهما طال وبلغت قوة الشرير.

2-استدعاء الذاكرة للشخصيات والأماكن:

ترتبط ذاكرة الإنسان في أغلب الأحيان بالأشخاص، والأماكن، والأحداث، التي رافقته طيلة حياته، فتبقى تلك الذكريات عالقةً في ذهنه، لتصبح فيما بعد ذكريات يستعيد بها شريط حياته السابق، "استعادة الذكريات الممزوجة مع التخيلات"[3]، لأن الفرد لا يستطيع مسح حياته من ذاكرته. وعليه ارتبطت ذاكرة الشخصية البطلة "هرم" بالعديد من الأشخاص والأماكن التي ظلت راسخةٌ في ذهنه، ومرتبطة بفتراتٍ من الزمن مرَّ بها منذ نعومة أظفاره إلى كبره كان يلجأ إليها لتخفّف عنه ألم الفراق، لكنها لم تكن تفعل.

[1]-رفاعي سرور: أصحاب الأخدود، ص: 61

[2]-الرواية، ص: 481

[3]-عبد الله إبراهيم: الكتابة والمنفى، ص: 13

2-1ارتباط الذاكرة بالشخصيات:

ظهرت في الرواية شخصيات مختلفة، منها الرئيسية والثانوية، ووفقًا لهذا فإن الشخصية عنصر من العناصر الأساسية التي تبني عليها الرواية، ولا يمكن الاستغناء عنها فهي تضفي على العمل حيوية فتتولد من خلالها الأحداث، وعليه "الشخصية هي كل مشارك في أحداث الحكاية، سلبًا أو ايجابًا، أما من لايشارك في أحداث الحدث فلا ينتمي إلى الشخصيات بل يكون جزاءً من الوصف"[1]، وفي تعريف آخر هي: "مجمل السمات والملامح التي تشكل طبيعة شخص أو كائن حي"[2]. فالروائي لم يكتف بتوظيف شخصيات متخيلة. بل استعان بشخصيات تاريخية مضيفا لمسته الفنية التي مزجت بين الحقيقي والمتخيّل في النص، "فليست الشخصية شخصًا، ولا وجود لها خارج عالم الرواية، في الروايات التاريخية، تتشابه صفات الشخصية التاريخية، ولكنهما يبقيان شخصيتين منفصلين، فلا شيء يمنع الراوي من أن ينسب إلى شخصيات روايته أقوالاً وأفعالاً وميولاً ومشاعر لم يذكرها لها التاريخ"[3]. وهذا ما فعله الروائي "محمد موافي" في روايته"آيات عاشق".

ومن أبرز الشخصيات التي ارتبطت بذاكرة البطل"هرم":

الأب: يدعى "عبد الله الظّفاري"، وهي شخصية معروفة في القصّة التاريخية بجدّ الغلام الصالح المدعو "عبد الله"، ويعتبر الشخصية المساعدة والمساندة والقريبة إلى "هرم"، ف"هرم" الإبن الأكبر وفرحته الأولى بعد أن ذاق ألم فقدان الإبن ثلاث مرات قبل ولادة "هرم". أسماه :هرمًا" كي يطول عمره، ويدلّ الاسم أيضا على طول الانتظار. ويعد "عبد الله" الأب والسند والملجأ في ظل انعدام الاستقرار تحت حكم ملكٍ فاسد. علمه أبوه ورباه ونال كل ما يمكن للإبن نيله من حنان ودفء وعلم وحكمة، وثقة بالنفسِ، فمن الجانب المعنوي أدى الوالد كلّ واجبات

[1]-لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، "عربي، انجليزي، فرنسي، دار النهار للنشر، لبنان، ط: 01، 2002م: 113، 114

[2]-إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، طبع التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، ع: 01، 2022م، ص: 210

[3]-لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، "عربي، انجليزي، فرنسي"، ص: 114

الأبوّة، يقول: **" أي بنيّ، تعلم أن ليس على وجه البسيطة أحب إليَّ منك، بل أنت وأخوك الثامر لأحَبَّ، إليَّ من نفسي وبصري"[1].**

رافقت صورة الأب وكلماته "هرم" في رحلته الطويلة، فقد تعلّم عنه فن التجارة وأساليبها، وهذا ما مكّنه م تكوين ثروته في منفاه.

الأخ: يعد "الثامر" أيضًا من بين الشخصيات التاريخية المذكورة في الرواية، وهو والد الغلام الصالح، وكذلك نفس الشيء في الرواية، أكسبه الروائي ملامح الشخصية البسيطة والبريئة، ارتبط"هرم" بأخيه منذ أن كان رضيعًا، فقد رعاه وكأنه جزء منه؛ حيث يذكّره برائحة أمه المتوفاة، قائلاً: **وأنا للثامر أخٌ وأمٌ ودرع"**[2] لكن هذا الدرع لن يصمد طويلاً، لأنه سرعان ما ينهدم بمغادرة "هرم" وانفصاله عنه، إلى أن وصله خبر وفاته الذي كسر سلسلة المنفى بعد أكثر من عشر سنوات انتظر فيها خبر هلاك "ذي شناتر" كي يعود إلى بلده، إلا أن الرياح تجري بما لا تشتهيه السفن، فجاءت الفاجعة **"قُتل التامر وكبر أبي، وابيضّت عيناه على فراقي وأخي. صار موت الثامر حكاية يتناقلها الناس. بعد أن رفض الاذعان للملك، وأبّى دعوته، هرب فلحقوه وقتلوه أمام أبي، قُتل الثامر وترك طفلاً صغيراً أسماه عبد الله"[3].** وفي هذا الوصف استلهام لقصّة سيدنا يوسف وأخيه بن يامين الذين شكّلا سببا لحزن سيدنا يعقوب، مما يجعلنا نحيل إلى المعادلات الموضوعية المتواترة ضمن الأحداث والتي تبيّن ايديولوجية الروائي، وعميق ربطه بين الحقيقي والمتخيّل، وقوّة الرسائل التي يبعث بها من خلال هذه الشخصيات المتخيّلة.

الملك ذو شناتر: ملك ماجن وفاسق يمثل أبشع مظاهر الظلم وانتنهاك حقوق الناس، وقتل الأبرياء بغير حق، وهو شخصية حقيقية يدعي لخيعة بن ينوف ولم يكن ينتمي الى عائلة المماليك، ولكنه من أبناء المقال[4]، وحكم العرش لمدة سبعة وعشرين سنة، وقد لقى حتفه على يد فتى يدعى "ذي نواس"، وقد استغل الروائي هذه الأحداث الحقيقية ليضمّنها قصّته المتخيّلة محافظا على الترتيب التاريخي للأحداث. ويعتبر الملك الفاسد السبب الرئيسي الذي دفع "هرم" إلى الهروب

[1]-الرواية، ص: 74
[2] -الرواية، ص: 44
[3]-الرواية، ص: 202
[4] -ينظر: وهب بن منبّه: التيجان في ملوك حمير، تح: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ص: 311

واختيار المنفى خوفًا، وسبب تولّد دلالات ارتباط المنفى بمظاهر اليأس المختلفة التي عاشها "هرم" خلال سنين منفاه العشرة.

الملك ذو نواس: وهو آخر ملوك حمير تاريخيا، تولى الحكم بعد قتله ل"ذي شناتر" بطنعة غدرًا، قيل: "ثم شب غلامًا جميلاً فلما آتاه رسوله عرف ما يريده فأخذ سكينًا لطيفًا وجعله بين قدمه ونعله، ثم أتاه، فلما خلابه وثب عليه ذو نواس فقتله"[1] فخلّص الناس من شره، وبعد هاته الحادثة "بلغ حمير ما فعله "ذو نواس" أرحتنا من هذا الخبيث-وكان آخر ملوك حمير-"[2]. لكن "ذا نواس" كان صديقًا عزيزًا ل"هرم" ضمن مجريات الأحداث وقبل مغادرة "هرم" لوطنه أوصاه بالإعتناء بعائلته وبالأخص "الثامر" قائلاً: **"أوصيته بأخي، شدَّ من أزرِي وعانقني، وعدني أن الثامر في عينيه، وأقسم ألاَّ يمسسه سوء وفيه طرفٌ يغمض"**[3]، لكنه في النهاية لم يف بوعده، بل قتل "الثامر" لاتباعه النصرانية

كليب الثغلبي: يعد الشخصية المنقذة ل"هرم" بعد وقوعه في يد اللصوص، فلما **"دخلوا حمى ملك قوي مَهِيب يُدعى كليب الثغلبي، يقتل كل من تسوقه قدمه الحمقاء الى حِماه دون استئذان"**[4]، فكان جزاء اللصوص الذبح، بعدها قضى أياماً معززاً مكرماً، يعلم الصبيان ليرد خير سيّده كُليب، وشخصية "كُليب" هي أيضا شخصية تاريخية وليست متخيلة، يدعى "وائل"، وكما ورد ذكره حول مقتله على يد الجساس عن طريق طعنة بالغدرِ؛ "وأقبل جسَّاس يَنزع الرُّمح من ظهره وهو يُخضخِضهُ في قسوةٍ و يقول له: ذُقِ الموت أيَّها الطاغية"[5]، فسقط "كليب" في الأرضِ ميتًا، بسبب طعنة تلقاها في ظهره. وهكذا كانت النهاية المؤلمة لصداقة "هرم"، و"كليب"، بالرغم من محاولته إنقاذه،

الكاهن: كان الكاهن بالنسبة "لهرم" معلما، فقد نقل إليه كل ما أوتى من علمٍ، من **"العِيافة وطُرق زَجْر الطير والاعتبار بأسمائها وألوانها ووجهات طيرانها وتتبُّع السوانج وتبيَّن البوارح؛ وكذلك الطَّرْقُ بنحت الخطوط في الرمال ورمي الحصى**

[1]- المرجع نفسه، ص: 312
[2]-المرجع نفسه: ص: 312
[3]-الرواية، ص: 90
[4]-الرواية، ص: 142
[5]-محمد فريد أبو حديد: المهلهل سيّد ربيعة، الناشر مؤسسة هنداوي، دط، 2020/1949، ص: 52

لكشف الغيب"[1]. وأيضاً من **"الخط وأخبار من سبق ومنازل القمر ومظانّ الريح وخبايا السحر وعجائب الكلام"**[2]

ماري ترتيليان: عشيقة "هرم"، أحبها في منامه، قبل رؤيتها في الحقيقة قائلاً: **رأيتني أُقَابلُ فتاة شهيةً كالقمر وناصعة البياض،وأمامنا طفلان يلهوان بشعلاتِ نارٍ مُتَقَدة"**[3]

فكانت هذه الرؤية بمثابة حقيقة مقدرة له بعيشها فالواقع، وأكدت ذلك العرافة التي قابلها في الإسكندرية. فكان أول لقاء بينهما في الحانة. هناك أدرك "هرم" الفتاة التي تزوره في منامه، والتي حدثته العرافة عنها، "ماري بنت ترتليان"، **"عشقت ماري في المنام قبل أن أغرق في بحر عشقها في اليقظة، كأنها هي سبب حِلّى وترحالي وكل حكايتي ألفتها روحي اِعتادتها كما اِعتادت الترحال"**[4]. كانت "ماري" وطنًا بالنسبة له بعد ظفار فلم يحس بالأمان إلا بعد لقائها، لقاء حبيب لن يدوم طويلاً. لتنتهي قصة حبهما بعد عودته لبلده، لكن خيالها ظل راسخاً في ذهنه. ونرى في حبهما حب عربيٌّ لموطنه، حب عربيٌّ مُتعطشٌ للحرية

وضّاح ابن ماري: كان بمثابة ابنٍ له، وهو شخصية متخيلة في الرواية، أحبّه "هرم" وكأنه من صلبه، علمه، وربّاه، كما أن رعايته له كانت تذكره بأخيه "الثامر". تمنى "هرم" اصطحابهما معه اِلى ظّفار، لكن "ماري" عارضت الفكرة، بسبب تمسكها بأمل عودة أمها وأختها الصغيرة التي ضاعت وسط ضجيجٍ مزدحمٍ قبل محاولتها الهرب.

جاريته. تدعى "سعدى"، جارية اِشتراها من سوق العبيد بسبب التشابه الذي بينها وبين ماري في قوله: **"بشرتها كالحليب وصافية حسناء جميلة، لكنها لا تقارن بماري وإن كانت تشبهها، خاصة في شعرها الأحمر المستدل"**[5]، وفيها تجتمع ذكريات "ماري"، فيحرص "هرم" على أن ترافقه "سعدى" إلى ظفار، ويتقرّب منها بعد فقده لعائلته لتمثّل عزاءه الأخير.

[1]-الرواية، ص: 64
[2]-الرواية: ص46
[3]-الرواية، ص: 73
[4]-الرواية، ص: 185
[5]-الرواية,ص: 296

بعبد الله: ابن أخيه "الثامر" سمّاه على اِسم جده ومثّل معادلا موضوعيا لشخصية العبد الصالح في قصة أصحاب الأخدود، ألبسه الروائي نفس الصفات التي ذكرت في التاريخ عب العبد الصالح من؛ سرعة التعلم، وقوة الايمان والشجاعة للوقوف ومواجهة الطغاة والفاسدين، كان بالنسبة له كل ما تبقى من رائحة أخيه المغدور "الثامر". اعتبره مثل ولدهِ. لكن يد اظلم والاستبداد سلبته إياه كما سلبت والده قبل ذلك. لقد جسّد الفتى معاني القوة الشجاعة حين اِستطاع أن يقف أمام الملك دون أن يشعر بالخوف لقوّة إيمانه بالله، فلم يهرب مثلما فعل عمه من "ذي شناتر"، بل حمل على عاتقه رسالة وعي ويقين بأن الله ليس غافلاً عما يفعله الظالمون، "يريد الغلام أن يأخذه بدنيه. لأنه كان يريد أن يتحرك به في حياة الناس. وسيواجههم بما يؤمن به مواجه واقعية عملية فلا بدا أن تبدأ هذه المواجهة بيقين من خلال هذا الواقع فليست الدعوة في نظر الغلام مجرد فكرة واقتناع شخصي بها ولكنها فوق ذلك واقع يتحقق بالقدر الذي يسير به الوجود"[1]. لهذا كانت علاقته بالراهب أقوى، فالعلاقة بينهما"علاقة إنسانية ناشئة في مجال الدعوة ونجدها قائمة بهذه الوجدانية"[2]، والضياع الذي وقع فيه في الاختيار بينهما يجعلنا "ندرك الصعوبة الكبيرة التي يعانيها المسلم الأصيل في مواجهة الواقع الفاسد وندرك أن الأصالة الاسلامية لابدّ أن تحرك المسلم لتحديد موقفه كما فعل الغلام"[3]. هذا ما حدث **تماماً مع** "عبد الله" في الرواية، الذي أجبر الملك الفاجر بنطق اِسم ربّ الغلام، وآمن الناس بعدها بربّ الغلام.

العبدين: "سعد" و"مسعود"، هما شخصيتيا ثانويتان، تمثل دورهما في تطوير الحبكة، اشتراهما هرم للإستئناس في الطريق، لم يطل دورهما طويلا في الرواية. كما أنهما أيضًا لم تطل معهما رحلته، لأنه قام ببيعهما لرجل من تغلب، ليكمل فيما بعد رحلته المتبقية.

العبدين الصالحين: وهما "فيميون" الراهب و"صالح" هما شخصيتان تاريخيتان، وورد في الرواية أنهما عبدان ربحهما هرم في صفقة شراء جاريته "سعدى" التي أرادها في البداية هدية للملك. ليظهر فيما بعد أن "فيميون" أخ "ماري ترتليان". لكن الروائي غيّر بعضًا من الحقائق بما يخدم أفكار الرواية، و"فيميون" هو من

[1]-رفاعى سرور: أصحاب الأخدود، ص: 26
[2]-المرجع نفسه، ص: 28- 29
[3]-المرجع نفسه، ص: 25- 26

نشر النصرانية في مدينة نجران، كما هي الحال في الرواية رفقة صديقه "صالح". وكان "الراهبُ" الذي يتردد إليه "عبد الله"، وارتبط "هرم" "بفيميون" من جانبين، الأول باعتباره أخا لحبيبته "ماري"، ومن جهةٍ أخرى أنه كان سببا في مقتل ابن أخيه على يد "ذي نواس"، لكن العبرة "تتحقق بعكس مقصود البشر من السبب فنفس الغلام الذي أراد البشر أن يكون داعية للضلال. يريد الله أن يكون داعية للحق"[1]. بالنسبة "لصالح" لم يكن بقريب منه كثيرًا على عكس "فيميون"، فعلاقته تنتهي معه حين يفك قيده من العبودية.

استجماعا لعلاقة حضور الذاكرة بالشخصيات يمكن القول، أن حضورها في ذهن "هرم" كان حضورا مضطردا بحسب علاقته به، حيث تمّ استرجاع حضور الشخصيات الرئيسية لأنها مثلت جزءا من أسباب المنفى، إما خوفا عليها من الهلاك، ويدخل في هذا السياق (عبد الله-الأب-، الثامر، عبد الله-الحفيد، الكاهن، وأهل ظفار المظلومين)، يقول: **"أول حقيقة تعلمتها في أيامي الأولى أن الفراق أشد سيوف الزمان التي لا يطالها صداً، سيف لا غِمّد له إلا قلبي، وأن عمرنا الحقيقي هو ما تركناه وراءنا، وأما القادم فمهما بلغت ملّذاته فلا يساوي ليلةً في حضن الأحباب"**[2]. وهكذا أسّست العلاقة الوطيدة بالوطن والأحباب مصدرا لاستخلاص الدروس والعبر، ومثّلت صور ارجوع إلى الماضي حالة من (النوستالجيا*La Nostalgie) التي لجأ إليها "هرم" مرارا ليخّفف عن روحه المضطربة.

ويمثل السياق المعاكس كلّ من (ذي شناتر وجيشه الظالم). أما "كليب التغلبي" و"ماري" فهما يقعان في دائرة العواقب التي نجمت عن اختيار المنفى ويشكلان الدائرة الإيجابية التي أحاطت ب"هرم" خلال منفاه، والتي لم تبرح ذاكرته بعد عودته إلى ظفار.

إن التشابك الحاصل في الاسترجاعات التي ظهرت في خضم الذكريات التي كان يلجأ إليها "هرم" في منفاه الأول توضّح أن العائلة وطن، والأصحاب وطن، حيما يمو هذا الوطن مبعثا للدفء والعيش الكريم، وهذا ما حاول "هرم" بعثه من خلال شبكة العلاقات التي فسرتها ذكرياته، حينما استوقفته هذه الشخصيات مليًّا يذكرها

[1]-رفاعي سرور: أصحاب الأخدود ص: 60

[2]-الرواية، ص: 101.

* النوستالجيا: الحنين إلى الماضي المثالي وهو مفهوم اخترعه العالم يوهانس هوفر.

بحب وشوق شديدن، بينما تعلقت ذكرياته مع الظلم والاستبداد بمشاعر الكراهية والنفور.

2-2 ارتباط الذاكرة بالأماكن:

يشكل المكان بقعة جغرافية ينتمي إليها الفرد، فالمكان جزء من هويته الوطنية، وعليه يرتبط به الإنسان ارتباطًا وثيقًا؛ روحيًا وجسديًا، فيبقى يحتفظ بكل التفاصيل المتعلقة به، صغيرة كانت أم كبيرة، مهما تغيرت الأحوال واختلف الزمن والظروف، حتى وإن جاب كل بلدان العالم.

ومن جهة أخرى إذا نظرنا للمكان على أنه جزءٌ من البنية السردية التي يقوم عليها العمل الأدبي، فهو يمثل "مكوناً محورياً في بنية السرد؛ بحيث لا يمكن تصور حكاية بدون مكان، فلا وجود لحدث خارج المكان، ذلك أن كل حدث يأخذ وجوده في مكان محدد وزمان معين"[1] وقد وردت عدة تعريفات للمكان منها أنه: "مجموعة من الأشياء المتجانسة (من الظواهر أو الأشكال المتغيرة...) تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المألوفة/العادية (مثل الاتصال، المسافة...)"[2]. وقد جاء في الرواية عدة أماكن منها المفتوحة والمغلقة والتي اتصلت اتصالاً مباشرًا بذاكرة "هرم"، ومن أبرز تلك الأماكن:

موطنه ظفّار: هي والبلد الذي ينتمي إليه روحيًا وجسديًا، هناك نشأ وترعرع بين عائلته؛ حيث نجد في ظفّار مكانين بارزين، والأحّب إلى قلب "هرم"، فرغم بعده إلا أن ذاكرته دائماً ما كانت تعود به لطفولته ووطنه . أحبّ "هرم" في ظفار الشلّال الذي كان يقضي معظم أوقاته في اللعب بمحاذاته مع أخيه "الثامر"، يقول: **"تطيب الروح، تنسابُ المياه، تنزلق على الصخور، يُجاوبها الحصى الأصمُّ بطبطةٍ تفصلني عن الزمان. أترك وأخي جسدينا للماء المنسكب من علٍ، كأن السماء شملتنا بشلاَّل الغيث وحدنا، واصطفتنا فتحمَّمنا بالماء وتنوَّرنا بالبهجة"[3]**. فهو حاضرٌ معه سواء في حاضره أو في ماضيه حين غادر ظفار. لم تفارق مخيلته تلك المناظر الخلابة التي كانت تريح باله فيصفها قائلا: **"وصفت له**

[1]-محمد بوعزة: تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط: 01، 1431هـ/1995م، ص: 99.
[2]-المرجع نفسه: ص: 99.
[3]-الرواية، ص: 43.

الشلاَّل البديع والمروج الفسيحة والجبال الخضراء"[1] ورغم مرور؛ **"عشر سنوات تحملني الوديان لمفازات ممتدة وجبال، أقطع سهولاً وتحملني الدروب لمدن وقرى، أفارق بشرًا وألتقي آخرين، تتوالى الوجوه وتغيب، ويبقى مشهدي وأخي في ماء الشلاَّل ملء عيني وخاطري"**[2].

ليس فقط الشلاَّل الذي تعلق بيه، بل موطنه ظّفار بأكمله؛ فكل واحد منّا يعتبر الوطن الذي ولد ونشأ فيه هو أجمل الأمكنة الموجودة في هذا العالم، وكل شخص داخل نفس الوطن يعتبر أنّ المدينة أو البلدة التي نشأ وولد فيها هي أفضل البقاع والأمكنة في هذا الوطن وفي هذا العالم أيضا، حتى أننا نجد الإنسان "شوفينيا" ومتعصبا لمكان ولادته ونشأته بشكل غير مفهوم، وكل واحد يتحدث عن منطقته كأنها الجنة"[3] ، يقول "هرم": **"عشر سنوات على فراق ظّفار ، وهي كل يوم بداخلي، نغادر الأوطان فتسكننا وتنمو فينا، وتمتدُّ جذورها وتشتجرُ في الأوصال، ونهجرها فتظلُّ تجري في دمائنا كل ساعة وعلى الدوام"**[4].

أما المكان الثاني فهو منزله، وهو مكان مغلق خاص بيه وبأهله، يملؤه الدفء و السعادة والحب. "فالماضي قبل المنفى يظهر كأنه زمن الحرية، ويكون الحاضر(أي حاضر المنفى وماضيه) حِيرةً وقلقاً ويبدو المستقبل عودةً مأمولةً أو ضياعًا مستمرًا"[5]، كما هو الحال عند "هرم".

منطقة كليب الثغلبي: كانت بالنسبة له سبيل النجاة من أيدي اللصوص، وبوابة عبور إلى حياة جديدة بعد فقدان الأمل من نجاته، لكن شاءت الأقدار وساقته إليه، فنجى من شرهم بفضل "كليب"، أما المكان الثاني الذي ظَّل مرتبطًا به في هاته المنطقة هي منزل سيّده الذي كساه وأطعمه وعاش **"بينهم معززاً مكرَّماً بضعةَ أهلَّة"**[6]، وفيها قابله "هرم" برد الجميل بتعليم الصبيان ومساعدته في أمور الحساب، فلما آن موعد الرحيل، غادر قصره وكله حزن على فراقه لكنه اِعتاد

---

[1]-الرواية: ص: 186.

[2]-الرواية، ص: 162

[3] - عبد السلام جليط، صداقة الأمكنة. https://www.aljazeera.net/blogs/2017/5/9 تمت مشاهدته يوم 2024/05/01، في الساعة 13:28.

[4]-الرواية، ص: 162.

[5]- السيد محمد الشامي، العالم كبنية سياسية نافية، مفهوم ياسين الحاج صالح عن المنفى. جامعة مانشستر، 17 أكتوبر 2020، https://www.researchgate.net/publication/344711549 ، تمت المشاهدة يوم 2024/04/27. على الساعة 10:35

[6]-الرواية، ص: 142.

على الفراق والبعد. **"كل صحبة منتهاها اِفتراق. أريد المُضيَّ يا سيدي، إن بأرضي شيخًا كبيرًا يشتاق إلى ولده، وأذوب إليه اِشتياقًا"[1]**. وافق "كليب" بكل صدرٍ رحب وجهزه شاكرًا إياه على خدماته. بعدها غادر "هرم" تلك المنطقة، لكنها بقت من بين الأماكن الراسخة في الذهن وتصاحبه أينما حلَّ. لأنها عبرت عن كرم وجود، وحسن ضيافة أهل العرب،التي افتقده سابقا. كما قدّمت هذه العلاقة صورة عن الرحمة، والتعاون، والإتحاد في وجه الظالم.

الإسكندرية: هي عاصمة مصر قديماً، ربما الأماكن المذكورة في الرواية لم تكن عبثاً، وإنما لغاية لا يدركها إلا كاتبها، لكن وفقًا لرأينا الشخصي ذكرت لبيان خروج الشعب المصري" من عباءة العصبية البدوية المغلفة بغلاف الدين وغلاف التمذهب إلى أن تكون ثقافة مميّزة تتبنى مفاهيم جديدة في واقع العرب وواقع المسلمين... والتي أهمها:

*الاهتمام بالمواطن والوطن، الاهتمام بالقوة الاقتصادية التي منحت لهذا القطر، الاهتمام بالعلم وبالمعرفة ونبذ العنف، اعتبار الدين جزء ثقافي وليس كلي"[2]، وغيرها من المطالب التي بنيت عليها الثورات السلمية التي شهدتها معظم دول العربية.

سميرناه: تعد المكان الذي تغيرت فيها حياة "هرم"، **"سلكت كل الدروب لأرتاح في حضن حبيبي، وما لاقيت إلا التعب، غدً أرجو أن تكون رحلتي الأخيرة، سأسكن سميرناه، فوق أرضها أو تحتها ترابها، وقد أوصيت أن تبقى لوزة فوق صدري، لوزة آخر ما تبقى من الأحباب"[3]**. فبعدما كان يرتحل من بلد إلى أخر استقر فيها وأصبح وطنه بعد ظّفار. المكان الذي أنساه ألم الفراق عن الأحباب لمدة تتجاوز عشر سنوات. وطن ذاق فيه طعم الحب والعشق والسعادة، في وقتٍ ذاق مرارة الحياة الصعبة، أسماه وطن الحبيب، وآخر محطة توقف فيها بعد رحلته التي بدأت من ظّفار، لتصبح قطبا لذكرياته مع "ماري ترتليان".

نجران وهي المنطقة التي شهدت أبشع حادثة في التاريخ البشرية "اِنتكست في هذه الحمأة، فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف، بهذه الخساسة التي لم يرتكس

[1]-الرواية، ص: 142.
[2] صلاح جواد شُبّر:الربيع العربي، نظرة من الداخل، وعامل ثقافة التشيع، ص: 249
[3]-الرواية، ص: 42

فيها وحش قط"[1]، وفي الرواية هي آخر محطة هرب إليها "هرم" من بطش "ذي نواس" ليأذن الله فيها بالنصر عليه مرّة أخرى، لأن"الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان... ليست هي القيمة الكبرى في الميزان... وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة. والنصر ليس مقصورًا على الغلبة الظاهرة. فهذه صورة واحدة من صورالنصر الكثيرة"[2]، وفضل الله ورحمته على عباده المؤمنين.، وفي ذلك رسالة لطغاة الزمن الحاضر أن أزمانكم ستولّي مثلما ولّت أزما طغاة قبلكم وإن الله على نصر القوم المؤمنين لقدير.

ذكرت أماكن عدة في الرواية، وكانت هذه أهمها لِإرتبطها بأحداث وأشخاص ووقائع كثيرة ظلت راسخة في ذهن "هرم" الذي يمثّل صورة معادلة للضمير الجمعي، الذي يقاسمه كل معاني الثورة ورفض الاستبداد.

أخيرا يمكن أن نستنتج أن علاقة النفى بالذاكرة نفسية، تلازمية مضطردة، لا يمكن الفصل فيها بين هذين المركّبين المادي والنفسي، الذي يشكّلان علامة فارقة في حياة المنفيّ قسرا أو طوعا. وهذا ما جسدته حكاية "هرم بن عبد الله الظفاري" والذي شحن رحلته إلى منفاه بكل ما يعايشه العربي في العصر الحديث من مظاهر الظلم والإرهاب النفسي والعنف الجسدي، وحاولات سلب الهوية الوطنية والدينية، في صورة موضوعاتية مؤطرة تأطيرا فنيا تناصيا بديعا استدعى قصّة أصحاب الأخدود المليئة بالعِبر.

ولعل هذا المستوى من التأطير الفني، والتقاطع الموضوعي لم يختف في الطرف الآخر لهذه الرواية الشيّقة الماتعة، حيث تظهر شخصية أنثوية نقلت ألم الذاكرة في وطن وكأنه المنفى عندما يغيب عنه الأهل والأحباب لتنقل صورة معاكسة للانتقال الجسدي، حيث يبقى الجسد حاضرا في الوطن وتنفي النفس ذاتها في ظل مظاهر الظلم والاستبداد، وهو ما ستتم معالجته في الفصل الموالي.

[1]-سيد قطب: معالم في الطريق، ص: 174

[2]-المرجع نفسه: ص: 175.

الفصل الثاني: تداعيات المنفى وخصوصية الذاكرة في قصة "ماري ترتليان"

1- 1 سبب المنفى وتداعياته على ماري ترتليان

1-2 خصوصية الذاكرة في قصة ماري ترتليان

2-1-1ارتباط الذاكرة بالأشخاص

2-1-2 ارتباط الذاكرة بالأماكن

تداعيات المنفى وخصوصية الذاكرة في قصة ماري ترتليان

شكّلت ثنائية المنفى والذاكرة حضورا ملفتا في مجريات قصة "هرم بن عبد الله" الظفاري ضمن روايتة "آيات عاشق" ل"محمد موافي"، لكن هذه الثنائية حضرت بشكل لافت وبمعطى جديد في تفاصيل قصّة "ماري ترتيليان"، شكل يوحي برغبة الروائي في وضع القارئ أمام صورة القمعين السياسي والنفسي بشكل واضح ومتكامل في البلاد العربية. حيث لم تدع آلة القمع هذه مجالا لحصار المعارضة السياسية إلا واستخدمته لوأد أي محاولة للخروج عن السلطة الحاكمة، ولعل تشابك الأحداث وارتباطها ببعضها البعض -بين ما حدث مع "هرم" وما حدث مع "ماري"- يرمي إلى منظومة من الدلالات تستدعي فصل القصتين والتعامل مع المنفيين بشكل متناظر نظرا لتقاطعهما في تولد صراعين داخليين وخارجيين يستدعيان التوقف في تداعياته ونتائجه التي تستحضرها الذاكرة.

1- سبب النفي وتداعياته على "ماري ترتليان":

1-1 ما قبل الشعور بالنفي:

قبل أن تستسلم "ماري" لمصيرها كانت تعيش حياة الاستقرار في كنف عائلة مسيحية محافظة، تتقاسم حلو الحياة ومرها مع والدها وأختها وأخيها "فيميون"، وسكان قريتها الذين يكنون الاحترام لوالدها. لم ينغص صفو هذه الحياة غير الحاكم الظالم الذي زعزع الاستقرار بشكل مباغت، **"خبطاتُ الجند العنيفة، هشموا باب ترتليان. اعتبروه من زعماء فتنة لا وجود لها، ساقوه وعائلته وسط عشرات، وجَّمعوا ما استطاعوا من رجال في ساحة كبيرة. وقف الحاكم القوي يوبخ الجميع، وينبههم أن من رحمة الملك رفضه إعدام الجميع بعدما تنامى لسمعه أخبار التمرد والخيانة"**[1] . منذ تلك اللحظة حسم أمر عائلة "ترتليان"، فلم يكن هنالك مجال للعودة. ورغم كل الصعوبات إلا أن "ماري" لم يراودها شعور الخوف وهي ترى والدها ينازع في حلبة الموت. قررت تخطي كل من وقف أمامها عساها تنقذ والدها من الإعدام. لأنه كان يمثل بالنسبة لها كل شيء جميلا في الحياة، فإن انتهى تنتهي معه أحلامها وحياتها **"ثارت، وهم يقدمونه للوحوش. زعقت، صرخت بكل هواء، اندفعت، شقَّت الحشد الصامت الخانع، ما أوقفها ازدحام ولا حجزتها أكتافٌ مذعورةٌ ولم تعرقلها حسابات الأخطار، ترتليان هو كل**

[1] الرواية، ص: 85-86.

شيء دفعت الجنود، خمشت وجوه كل من صادفها".[1] في هذه الصورة تتجسد آليتان للقمع أحدهما جسدية تمثلت في تدخل الجنود للقضاء على المعارضة، أما الآلية الثانية فهي نفسية أثرت بشكل مباشر على كل من عاشها فماري تارتيليان صوت المعارضة الواضح كانت هدفا يستخلص منه الحاضرون العِبرة المتمثلة في أن مصير والدها وغيره من المعارضين لن يكون غير الموت، ولن ينجر ع معارضتكم غير الأذى، وعليه "يريد القامع أن يقمع شيئا محددا في المقموع، وهو جوهر حياته، أو أحد أهم المستلزمات لحياته، لأنه يريده نصف حي. النصف الآخر "الزائد" هو الإرادة أو الحرية أو الكرامة، وهذا النصف إن لم يمت فإن القمع والاضطهاد لا يمكن أن يستمرا.

إن تاريخ الإنسان المقموع، وهو الغالبية العظمى من البشر، هو تاريخ الإنسان المتحول إلى شيء آخر غير الإنسان، هو تاريخ تشويه الإنسان وتزويره"[2]. ومن هذا المنطلق شهدت "ماري ترتليان" تزوير آدميتها حين بدت وحشا كاسرا بين الجموع يجب القضاء عليه، فحين هجمت "ماري" مدافعةً عن أبيها حاول الجنود الإمساك بها لمعاقبتها مثل "ترتيليان" **ف "صرخت أمها، حفزتها ودفعتها لتجري، أمرتها أن تعدو بكل ما فيها من قوة، ألاَّ تعود. لو عادت فأكيدٌ سيفتكون بها ويقدمونها بعد أبيها فريسةً للسباع. قلوبهم لا تعرف الرحمة ولم تمرَّ بشراييهنا يومًا رأفة أو شفقة، لا عجب أن الحجارة أرقُّ من قلوبِ كثيرٍ من البشر" .**

بسبب قسوة تلك القلوب تشرد الكثير من أمثال "ماري" وتيتموا، ولعل من بين الأسباب التي جعلت حياة العربي تتدهور سكوت الشعوب عن حقوقها، وخضوعها للواقع المفروض عليها، وعيشها تحت ضغط نفسي متعدد الأوجه موحّد الغاية، حيث يعتبر كل مطالب بالحق خائنا عميلا، لقد باتت الشعوب العربية رهينة عند الطغاة حتى أنها –أي الشعوب- سمحت لحكامها الظالمين بالتمادي في التنكيل بالبشر بأبشع الطرق الممكنة. ومن مظاهر التنكيل؛ محاولات محو الأصول، والاعتداء على المعتقدات الدينية الخاصة بالأفراد.

2-1 رفض النفي الجسدي الطوعي:

[1] الرواية، ص: 95

[2] عماد الدين فارس، قصة الإنسان المقموع، موقع الجزيرة نت، https://www.aljazeera.net/blogs/2024/1/9شوهد بتاريخ 2024/05/04 في الساعة 10:40.

صدر الرفض من والد "ماري" السيد "ترتيليان" قائلاً: **"وهل نترك مكانًا نحن جذوره، نحن ملح البحر وسماد البساتين. القدر لا يعترف بكلمة الهروب ولا ينفع منه فرار. ثم إن كل بقعة في الدولة تظلّلُها يد البطش"**[1]، ووفقًا لرأيه فإن الفرار "قبل أن يكون خروجًا من البيتِ (من مكانٍ ما) يكون خروجًا من النفس ذاتها، من عاداتها ومألوفاتها بهذا يكون الخروج خروجَ تحررٍ وتغيير"[2] قاصدًا به الإنسان الضعيف والساكت عن الحق بسبب الخوف، هو فقط من يلجأ إلى الهروب حلا،مؤكدًا لابنته "ماري" **"أن للحرية شهداء تختارهم بعناية، كما يلتقط بستانيٌّ وروده المزدهرة المتفتحة. وردةً كانت، ولا تدرك الوردة البريئة أن تفتُّحها احتراقها، طفلة كانت ولا تزال"**[3]. ليُبيّن أن للمنفى وجهان؛ إما الهروب خوفًا، أو البقاء والمواجهة حتى آخر نفس يخلّدُ اسم صاحبه على مر التاريخ، ويجسد هذا الموقف شكلا من أشكال التصدي والصمود التي حفظتها الذاكرة الإنسانية على مر الزمن. يمكن القول بأن"التخيل التاريخي"هو المادة التاريخية المشكلة بواسطة السرد، وقد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية والوصفية، وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية ورمزية، فالتخيّل التاريخي لا يحيل على حقائق الماضي، ولا يقررها، ولا يروّج لها، إنما يستوحيها بوصفها ركائز مفسّرة لأحداثه"[4]. وهكذا تناسلت وسط قصتي "ماري" و"هرم" أحداث تاريخية حقيقية رمزت إليها أحداث متخيّلة اختارها الروائي بعناية.

2-1 المنفى النفسي بديلا عن الوطن:

لم تغادر "ماري ترتيليان" وطنها، لقد أمسك بها جندي بين أحراش المدينة، ولم تمنعه براءتها من تركها أو إعادتها أسيرة إلى المدينة، بل سوّلت له نفسه اغتصابها بكل وحشية، لتعود أدراجها وقد قتل فيها كل معاني الحياة، **"الوطن رحيبٌ لولا الظلم"**[5]، بهذه العبارة اختزل الروائي وضع "ماري"، ووضع كل من

---

[1]-الرواية, ص: 81

[2]- السيد محمد الشامي، العالم كبنية سياسية نافية، مفهوم ياسين الحاج صالح عن المنفى. جامعة مانشستر، 17 أكتوبر 2020 ، https://www.researchgate.net/publication/344711549 ، تمت المشاهدة يوم 2024/04/27. على الساعة 12:00

[3]-الرواية, ص: 53

[4]-إبراهيم عبد الله: التخيل التاريخي, السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, لبنان, ط: 01، 2001م, ص: 05

[5]-الرواية, ص: 87

يحسّ بالقهر في وطنه، نعم إنه الظلم منطلق كل الشرور التي حولت حياة "ماري" إلى مأساة تتجرع فيها مرارة الموت كل يوم، وتجعلها تتمنى لو أنها لحقت بأحبابها يوم هجم جنود الملك على القرية فأبادوا من فيها، قالت "ماري" :**"بفراق الأحبَّة كل شيء سواء"**[1]. فجأة ودون سابق إنذار انقلبت حياة الآمنين رأسا على عقب، حينما سولت نفس شريرة لصاحبها انتهاك أوطان غيرها بدون وجه حق، بعدما كانت أراضيها تفوح بعبق الزهور، تلونت بدماء الأبرياء.

عبرت "ماري" عن هول الفاجعة قائلة: **"صارت روحي دما. كل الشرور أصلها دم، تغيرت حياتي لما نزلت قطرات الأنوثة. زراني القمر فلم ينزل دم، اقترب السبع من أبي فانفجر دم، تُهت فهتكني غولٌ وفضحني دم. ليت الدم يتجمد في عروقي ما الدم؟ماء أحمر، أم لعاب غول؟نبيذ الشهداء أم شراب العساكر؟. دمي مصيري. ملوث كجسدي، وسخٌ كروحي. روحي دمٌ، ودمي ورقةٌ جافة فوق شجرة ميتة"**[2]. في قولها هذا اشتغلت "ماري" على رمزية الدم؛ " الدم في ثقافتنا اليومية وفي ممارساتنا الفنية علامَة رمزية أكثر مما يشتغل مؤشرا، واشتغاله بهذا الشكل يجعله مستفيدا في دلالته بما يُسنده إليه المؤول من دلالات تختلف باختلاف الوضعيات التي يستعمل فيها. قد يكون الدم رمزا للموت وللحياة، للطهر وللنجاسة، للشرف وللخسة، للوفاء وللغدر فهو رمز تقابلي بامتياز" [3]، وفي سياق هذه التقابلات وضعت ماري المتلقي أمام فرصة فهم رفضها للظلم الممارس حولها، وتداعياته النفسية والجسدية عليها وعلى وطنها وأهلها وكأنها تستصرخ من ذاتها كل أنثى كانت ضحية لأشكال القمع التي تعرّضت لها، واستطاعت رمزيا تمرير هذه الصورة من خلال استغلال المعاني التقابلية القوية.

1-2 تداعيات المنفى النفسي على ماري:

فقدت "ماري" الرغبة في الحياة وأصبح وطنها منفاها حين غاب عنها الأحبة من غير وداع، **"تمشت ثانيةً لبيتها، ورقدت به ساعات، لعلها تجد شيئًا من عطر الأحباب. الحقيقة أنها وجدت كل شيء بالبيت، لكنها ما وجدت البيت،**

[1]-الرواية, ص: 116

[2]-الرواية, ص: 119

[3] توفيق قريرة، سيميائية الدم العربي، القدس العربي، https://www.alquds.co.uk2017/11/20/ شوهد بتاريخ 2024/05/04 في الساعة 11:56.

غياب أصحابه يذبحه كما هي مذبوحة. كآبات تسكنها وتسكن البيت"[1]، يمثل البيت المهجور بمشاعره الحزينة منفا موحشا، فالغربة النفسية التي تحيط ب"ماري" جعلتها تبدو داخل سجن كبير، سجن مفتوح على صراعات بدأت تتكشف أكثر فأكثر بتقدم مجريات الأحداث.

جسدت "ماري" كل صور معاناة المرأة أختا كانت، أم بنتا صغيرة، أم عشيقة...، باختصار هي لوحة تعبيرية عن كمية القهر الذي لا يمكن أن يطيقه بشر **"تجمعت بعينيها المشاهد وتجسدت: الجندي إذ يجتاحها بالغصب والإذلال، والدلاّلُ إذ يقدمها كسلعة رخيصة، والسكارى إذ يتلقفونها وهي شبه عارية تتمايل أمامهم، امرأة ترتليان يفترسها سبع. استحضرت كل الأيام، وما أدراك ما الأيام ولا ما تفعله الأيام بالماسكين؟"**[2].

لقد غابت معاني الطمأنينة والسلام والأمان عن "ماري" وأهلها لأنهم أرادوا العيش بكرامة وسط الشعور بالعدل والحرية، فقد **"قدموا مطالبهم بأدب، ولخصوها في التخفيف من الضرائب والمكوس والجبايات غير المفهومة، وأن يُطلق سراح إخوانهم ممن لم يرتكبوا جرما. وأكدوا أنهم ليسوا أهل حرب ولا تمرد ولا عصيان، متمنين النصر الدائم للوطن"**[3]

هي صورة من صور بعض المطالب التي أرادت الشعوب العربية تحقيقها بوقوفها أمام الأنظمة الفاسدة دون أن تعلم أن هذه الحقوق المكفولة برسم القانون والدستور ما هي غير حبر على ورق، وأن المحك الحقيقي لقياس مدى نيلها لحقوقها، كان بالتعبير عن رفض واقعها البائس الذي حوّلها إلى وضع أسوأ مما كانت عليه. فبدأت هذه الأنظمة **"إشاعة الرعب وإبقاء المشهد راسخًا حيًا برأس كل من يفكر ثانيةً في التمرد أو التلميح بالغضب من سوء الأحوال. الخائفون تنفعهم العصا ويصلح لحكمهم حديدٌ ونار. يجب على الجميع أن يظلوا خائفين لا همَ لهم إلا السلامة. ولا همَّة إلا السعي وراء خبز يُسكن الجوع. "**[4]

شبهت "ماري" نفسها حين فقدت عائلتها بالورقة الضعيفة التي سقطت من الشجرة، وبقيت وحيدة تواجه عواصف الحياة ومشاكلها؛ **" كورقةٍ ساقطةٍ تركت**

[1]-الرواية، ص: 123/122
[2]-الرواية،ص: 138
[3]-الرواية, ص: 85
[4]-الرواية, ص: 86

نفسها للريح، بكت وهي تفكر في مصير لم تستعد له: "حين تصيرين وحيدةً بلا أبٍ ولا سَندٍ أوظهر، فسوف ترتجفين للبرد وتألمين للجوع، وتكتشفين كم هي الحياة كئيبة بعد الأحباب. خاصةً الأب"[1]. تشردت، واجهت البرد والجوع، واغتصبت من طرف الغول كما أطلقت عليه، وتم استغلالها من طرف الدلاّل كسلعة رخيصة. إلى أن عرفت الدعم النفسي المتمثل في شخص "هرم" الذي عرفت حياتها بوجوده الاستقرار ولو إلى حين، لقد أصبح "هرم" وسط الحشود حامي عرينها وكفيل ابنها ونصيرها، أَمِنَت بوجوده واستكانت من طوارق الليل والنهار الذين كانوا يفترسون جسدها الضئيل.

2-1-1 وضّاح منتقما لنفسه ولأمه:

مرّت "ماري" بأيام ضعفت فيها إلى أن جاء "وضّاحها" أشرق عليها بشمسه، وأصبح كل ما تملكه، لأجله تمسكت بالحياة وحاربت لتحميه، "وضّاح" الذي اتسم من صغره بالذكاء والقوة، علّمه "هرم" كيفية الدفاع عن نفسه وحماية أمه من الوحوش. لكن ما جعل منه ضعيفًا هو ابتعاده عن الله ونقص إيمانه، كذلك عمل أمه، وكونه ابن زنى، أصبحت أفواه الناس تتلقفه. عزِمَ على الفرار من سميرناه مع "ماري" ليلتحقوا "بهرم" هروبًا من السجّان الذي استباح أمّه، وألسنة الناس التي لم ترحمهم. كانت وجهة "وضاح" الأولى الإسكندرية بعدها سأل عن ظفار موطن "هرم"، لكنه أدرك في النهاية أن عليه الانتقام لنفسه أولا فعاد لسيمرناه للتخلص من السجّان.

أقنع "وضاح" نفسه أن لا وجود للإيمان الذي تسبب "لماري" بخسارة عائلتها ونفسها. **"لكن كان يزوره بين الحين والآخر مع طيف ماري شعورٌ خافت هادئ، يتركه مزلزلاً بأن حقيقته المخفية والمخيفة والتي يدفعها بكل ما أوتي من قسوة هي الانتساب لترتليان الذي لقي حتفه بين يدَيْ سبع"[2].** وساهمت علاقته بالراهب "بوليكربوس" في زرع بذرة الإيمان في قلبه، "الرّاهب" الذي صمد أمام قوة الطاغوت وتمسك بديّنه وإيمانه ولم يتخل عنهم، كما فعل خاله "فيميون" أمام الملك "ذي نواس". أما المشهد الذي يقابل نفس حادثة أصحاب الأخدود في الرواية حين؛ **"قرر الحاكم إعداد مذبح مَهِيب عند رأس الجبل الكبير، حيث فوَّهة بركان**

[1]-الرواية, ص: 125
[2]-الرواية, ص: 309

خامد يفضي لسواد بعيد وعمق لا يدري أحد مداه. بل إن الحكايات تقول بأنه ينتهي للجحيم مباشرة وقاع الأرض حيث جهنم الحامية. وسِيقَ المئات من السجون والبيوت والشوراع"[1]. وهو نفس المكان الذي أعده "ذي نواس" ليقتل من لم يلعن المسيح ويتبعه.

وفي خضم هذه الأحداث الدائمة تماثل أمامه مشهد أمٍ مع رضيعها كان فيهما **"شبه متطابق بالتمام بين المرأة أم الرضيع وأمه ماري التي ماتت قبل زمن. حتى الطفل به من ملامحه نفس العينين والشعر الأحمر. شعر أنه الطفل، وأنها أمه"**[2]. وحدث ما لم يكن في الحسبان حين نطق الطفل الرضيع في مشهد يحبس الأنفاس **"ينطق بلسان مبين جهوري: "يا أم، إنها الجنة، الفردوس، النار لن تحرق مؤمنًا. فامضي إلى الملكوت راضية، معه هنالك ذلك حَسَن"**[3]. لقد كان هذا المشهد نقطة تحول في حياة "وضاح"، قلب حاله من ضعف إلى قوة، ومن ظلمات إلى نور سار عليه أجداده وأمّه "ماري" إنه نور الإيمان الذي لم يستشعره طول حياته قط..، وقف صارخًا في وجه الحاكم وجنوده قائلاً: **"توقّفوا إني على دين المرأة، إني على دين أمي ماري، إني على دين آل ترتليان، أنا ابن ترتليان"**[4]. وهكذا حملت هذه المشاهد أمل الأمة العربية بتولّد جيل جديد، جيل يمكن أن ينتفض في وجه القوى الظالمة القمعية فالعنف لا يولّد غير العنف و"الأيام دِولٌ" كما يقول المثل؛ "يوم لك ويوم عليك".

لقد تنبّأ "ترتليان" أنه سيكون لماري شبل يحمل شعاع الأمل الذي يلمع من الأفق البعيد؛ يقول: **"ذلك لن يُنسينا الفرح بماري، والترتيب لزفافها القريب. فلنبارك خطوبتها داعين لها بالسعادة والذُّريَّة الطيبة. مَن يدري فلعل تلك الصغيرة تحمل لنا سيفًا من نور يخافه أعداء الحرية"**[5] ، ومتأملاً من الأجيال القادمة**"ربما يحملون الغد مشرقًا وتشرق عليهم شمس الحرية يومًا ما"**[6]، الحرية التي طالما آمن بها "ترتليان" وكل متعطشٍ لها، الحرية التي لا يمكن نيلها بغير المواجهة والجهاد.

---

[1]-الرواية، ص: 371

[2]-الرواية، ص: 372

[3]-الرواية|، ص: 372-373

[4]-الرواية، ص:337

[5]-الرواية، ص: 81

[6]-الرواية، ص: 80

تعلقت تفاصيل قصة "ماري" برؤى فلسفية وفكرية يُخْتَلف في تأويلها من قارئ لأخر حيث تنفتح تفاصيل الرواية على تناصّات مختلفة تستجمع الماضي وتحيل إلى الحاضر بأسلوب فني لافت أشرنا إليه مرارا، يستدعي توقفا تحليليا على مختلف المستويات. ولكن ما يمكن الاتفاق حوله في المجمل أن الروائي استطاع تصوير الواقع العربي المعيش في قالب أدبيٌ فنيٌ يحمل في طياته الكثير من الآلام التي لم يستطع الإنسان العربي التعبير عنها بشكل مباشر، وأن طريق الصمود والكفاح طويل يتطلب الصبر، وأن الضعف والخوف والبعد عن الدين يجعل صاحبه يعيش الذُّل والهوان، ولا سبيل إلا المقاومة.

2- خصوصية الذاكرة في قصة ماري ترتليان

عطفًا على ما سلف ذكره من تعريفات للشخصية والمكان والذاكرة، ونظرًا لمدى أهميتها البارزة في حياة الفرد وعلاقاتها ببعضها، "تعد الذاكرة من أهم العمليات العقلية المعرفية العليا في حياة الإنسان، وتعتمد في نشاطها وفاعليتها على عدد من العمليات العقلية المعرفية الأخرى مثل الإدراك، والتفكير، والتعلم"[1]، فالإنسان مخلوق عاقل ميّزه الله سبحانه وتعالى بالعقل الذي أعجز بخلقه قدرتنا على تصوّر مدى قدرته على آداء مجموعة من العمليات في لحظة واحدة. وهكذا كانت الذاكرة جزء من تلك العمليات العميقة التي تربط شعور الفرد بلا شعوره.

في ذاكرة "ماري" يجتمع الأهل والأحبّة والوطن، وترزح الأحداث –حلوَها ومرّها-، يتوزعون جميعا في نطاق ذاكرتها بحسب الأهميّة والقرب النفسي، وبحسب الظروف التي تستدعي استذكارهم.

2-1 ارتباط الذاكرة بالأشخاص والأماكن:

2-1-1 ارتباط الذاكرة بالأشخاص:

السيد ترتيليان: "كل أبٍ طيب هو الحياة"[2]. تعلقت "ماري" بوالدها منذ نعومة أظفارها، فكان أقرب الأشخاص إليها لدرجة أنها تمنت أن يكون لها زوج حنون مثله. يدعى "ترتليان"، "ترتليان" الذي لقي حتفه جراء تمسكه بدينه، لم يطل دوره كثيرًا في الرواية، لكنه ترك أثرًا بالغًا لدى "ماري" وابنها "وضاح".

[1]-عادل بن عايض بن أحمد الثبيتي: عمليات الذاكرة لدى طلاب المرحلة الثانوية والجامعية بمحافظة الطائف دراسة مقارنة, محمد بن بن حمزة السليماني، جامعة أم القرى كلية التربية، المملكة السعودية, 1432هـ/1433هـ ، ص: 14

[2]-الرواية, ص: 95

أحبّ ابنته حبًا لن يحبها بعده أحد. ووردت مقاطع عديدة في الرواية تبيّن مدى الحب الكبير الذي بينهما، منها قول "ترتليان" وهو يشاهد ابنته تحجل**"أجمل بنت تحجل، وقلب أبيها فرحٌ يحجل. قلبي يحجل أمام عيني، وعيني جميلة لأنها ترى أجمل طفلة. من تصاريف الزمان يحفظك الرب، ويرعاك يا أجمل زهرة في بستاني"**[1]. وفي موضع آخر قالت "ماري" لأبيها: **"لو لي ابن، أريده مثلك طيبًا. سألعب معه كما تلعب، ولن يبتعد عن حضني"**[2].

انتهى حلم "ماري" مع والدها يوم أخذه جنود الملك لتقديمه كوجبة دسمة للأسد أمام أنظار ابنتيه وزوجته وحشدٍ كبير من الناس. فتحولت أيامها بعد ذلك الحادث إلى كابوس فضيع لم تستطع الاستيقاظ منه،فكانت ترى في ابنها "وضّاح" والدها المغدور "ترتليان", وتذكرت كلام والدها حين؛ قال لها: **"في الدنيا المهزوم غالب, والغالب مهزوم, فالمهم هو الملكوت, ملكوت واسع له باب مفتوح للمظلومين ومنغلق في وجه قساة القلوب"**[3] . يلخص هذا المشهد الوحشية التي يعاني منها الضعفاء, ويعكس الحقيقة المخفية عند الكثير من الظالمين؛ أن الدنيا فانية لا محال لها وأبواب الله مفتوحة للمظلومين الذين سلبت حقوقهم, وللذين تعرضوا لأبشع التعذيب والظلم, والتعدي على الأبرياء كما هو الحال عند "ماري".

والدة ماري: كانت علاقة ماري بأمها مثل باقي العلاقات التي تجمع كل أمٍ بابنتها من نصح، وتعليم، وإرشاد، وتوبيخ، وحنان، وخوفٍ.. لم يسلط الروائي الضوء كثيرًا على دور الأم لهذا يمكن اعتبارها من بين الشخصيات الثانوية. لكن هذا لا ينكر العلاقة القوية التي تربطها مع "ماري". كما تعد الشخصية التي دفعت "ماري" للهروب بداعي النجاة من الملك وجنوده. بعد فراقها منذ ذلك الحادث ظّلت متأملةً لقاء أمها وأختها الرضيعة "يوليانا". وما حدث أن مصير أمها لم يتضح في الرواية وبقي المجال مفتوحاً لمخيلة القارئ.

"فيميون": لم تبرز علاقتها بأخيها كثيراً بسبب مغادرته وهو صغير كي يتلقى تعلميه على يدي الراهب في الشام حول دينه. وما جمعها به فقط صلة القرابة وشوقها الشديد لعودته لحضور حفل زفافها **"أخوها الطيب الذي مضى قبل شهور**

[1]-الرواية، ص: 50.
[2]-الرواية، ص: 51.
[3]-الرواية، ص: 230.

ليتعلم من راهب بالشام، وما وصل عنه خبر"[1]، وبعد خسارتها لعائلتها بقيّت تنتظر عودته لتحتمي به؛ حين كثرت الشدائد والمصائب. لكن دور "فيميون" كان بارزًا في قصة "هرم" بدايةً منذ أن كان عبدا إلى أن أصبح الشخص الذي فتح بصيرة ابن أخيه "عبد الله"، والمتسبب في موته ونشر المسيحية في نجران. لكنه خلّد اسمه و بطولاته في التاريخ بصموده وتحمله وتمسكه بدينه, كما فعلت "ماري" هي أيضًا تمسكت بدينها إلى آخر نفس لها, تذكرت فيها عائلتها قائلة ل"وضّاح"**: هذا خالك فيميون, كأنه جواري, يسمعني وأسمع بكاءه"**[2]. بكاء آلاف من الناس المهمشين في العالم العربي, والذين طالتهم يد الأشرار مستغلين نفوذهم لتحقيق غايتهم, وتحطيم آمال شعوب عربية.

الجندي المغتصب: يمثل صورة الوحش الذي قضى على براءة "ماري". وهو جندي من جنود الملك الذين كانوا يبحثون عنها بعد محاولتها الهروب، **"أنت ترتعشين مسكينة. أخرج من ملابسه رغيفًا نصف يابس، تناولت الرغيف، التهمته. مدَّ إليها قربة ماء صغيرة وشربت. أول ما بان وجهها عرفها: أنت الهاربة، الجند كلهم يفتشون عنك. لابُدَّ أن أقبض عليك فورًا. هناك جائزة بانتظاري"**[3]

اعتدى عليها بأبشع الطرق، حاولت بشدة أن تنقذ نفسها لكن الوحش كان أقوى منها ومن جسدها الهزيل المتعب، خاطبها قائلاً: **"أيتها القطة البرّيَّة، راقَ لي جموحك، الأجمل فيكِ: أنك كنت بِكرًا، جميل أن أكون أول مَن يفضُّ غلافك الرقيق ويفقع حبَّة عنبك"**[4]. صورة لخّصت ما تعانيه معتقلات الرأي والسجينات في سجون الاحتلال من معاناة تنتهي فيها كل معاني الإنسانية، شهادات مروّعة ترويها المعتقلات عن الاغتصاب المتكرر وحالات الاعتداء التي عانينها ويعانينها إلى أيامنا هذه، و"ما خفي أعظم" وثّقت بعضه المنظمات الأممية والحقوقية، ولا تزال التحقيقات فيه جارية إلى أيام الناس هذه. وهذا ما سعى إليه الروائي من خلال شخصية "ماري" التي لخصت كل ما تتعرض له البلدان العربية بصورة عامة, وليصل صوت العرب إلى بقاع العالم راجيًا وضع حد لكافة الجرائم التي تحدث في حق الإنسانية.

[1]-الرواية، ص: 56
[2]-الرواية، ص: 290.
[3]-الرواية، ص: 115
[4]-الرواية، ص: 117

الدلاَّل: يعتبر منقذها من التشرد، ومغرقها أيضًا في مستنقع كان الشارع ليكون أهون منه. وجدها في الشارع وأعادها إليه مستغلا ثقتها، ولأنه يميز و**"يقدر ثمن كل سلعة ويعرف كيف يستفيد منها. ربت على كتفها بحنان وطيّب خاطرها، مدّ لها يده، وأكد صداقته القديمة لأبيها، وعرض بحزم وحنان ضيافتها"**[1]. بعد قضاء أسبوعين عنده قرر أن يرسلها بعيدًا كي لا يجدها أحد يقول لها: **"هناك مكان لطيف وآمِن وبعيد عن الأعين في أقصى المدينة، يتجمع فيه الناس من الرجال والشباب، يمكنك أن تعملي به، تقدمي الطعام والشراب"**[2].

كان الغرض من ذلك استغلال ضعفها وحاجتها لصالحه كي يتكسّب من جسدها، وتركها تصارع فضيحتها، غارقةٌ في حزنها، تاركًا لها بعضا من النقود، ليؤكد مرة أخرى مدى عظمة ونعمة وجود الأب كسند لكل فتاة، فإن ظّلت وحيدة تكون مستهدفة من قبل الوحوش البشرية، أو الغول مثلما قالت "ماري": **"بعد مرور شهرين من ولادتها وضّاج، حفّزها الدّلال للعودة للعمل، ذكّرها أن عليها دينًا يجب آداؤه. قالت لنفسها: إن كان ابنًا لقمر أو شيطان فلا يضرُّ أن يأكل من رقصي،ولا عمل أجيده ولا أحد لي وله إلا جسدي"**[3].

صورة "ماري" اليائسة تعكس شقا من المجتمع مسكوت عنه، تُرك ليعاني في صمت ويلات ما جرّته ظروف العيش القاهرة إليه، وقد نالت هذه القضية حظا في الرواية إقرارا بفظاعة الوضع. ومن بين المقاطع الواردة في الرواية, والمعبرة عن تلك الجرائم التي ارتكبت ضد الأبرياء, عند تذكر "ماري" كلما حدث معها بعد الحادثة, **"تجمعت بعينيها المشاهد وتجسدت: الجندي إذ يجتاحها بالغصب والإذلال, والدلاّلُ إذ يقدمها كسلعة رخيصة, والسكارى إذ يتلقفونها وهي شبه عارية تتمايل أمامهم امرأة ترتليان يفترسها سبع. استحضرت كل الأيام, ولا ما تفعله الأيام بالماسكين؟"**[4], اختزل المشهد ما يحدث في واقعنا, لذا يمكن أن نعتبر "ماري" صوتًا من بين تلك الأصوات التي تعاني ولا تستطيع أخذ حقها بسبب انتشار الظلم, الذي ساد معظم الأوطان العربية في الوقت الراهن.

[1]-الرواية، ص: 124
[2]-الرواية، ص: 125
[3]-الرواية، ص: 140
[4]-الرواية، ص: 138

وضّاح "هذا وضّاح، هذا وضاحي أنا. هديةالزمن مقابل ما لاقيتُ من لعنات الحياة" [1]سُميّ "وضّاح" لجماله، وصفته العجوز عند رؤيته: **"قمر، لا بل شمس ساطعة"**[2].

وكي يعيد لأمه بريق الأمل الذي انطفئ بعد المجزرة التي شاهدتها هي وعائلتها. بعد كل ما عاشته.، أصبح "وضّاح" عالمها، أنيس غربتها في وطنها ووحشتها، في ظل فقدانها لأعز أحبابها جراء الظلم. حين كبر "وضاح" أدرك أن لا مجال للفرار من وطنه، ولا البقاء ساكتًا عن أفعال الحاكم. عزم على قتله انتقاما لما تسببه من أضرار. محدثًا نفسه: **"يا أمي، لأجلك وأجل كل من ماتوا سأقتل الحاكم. قيل لي: إنه لا سبيل لذلك. لكني أحتاج رعايتك وأمنياتك لي بالنجاح في ذلك. ابتهلي لرّبك لعلَّه يسمعك ولو مرة واحدة، وإن كان يرضيك، فها أنا أبتهل إليه أن يمنحني القوة لأقتل ذلك الدجال. لا ضيرَ من بعض إيمان طالما أن الكفر لم ينفع"**[3].

تظهر قيمة الإيمان " في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد"[4]. فتحرر "وضّاح" بقوة إيمانه ووصايا أمّهِ "ماري" قائلةٌ له: **"كُنْ قاسيًا يا صغيري، فالزمن لا يرحم الشاة الوادعة، كن وحشًا كي لا تفترسك السباع"**[5]. وفعل ما لم يستطع أحدٌ قبله فعله قضى على الأسد الذي فتك العديد من الأبرياء وقتله، وبزغت شمس الحرية مجددًا.

هرم: كان "هرم" بمثابة المنقذ ل"ماري". بعد ما عانته في حياتها. أخرجها من المستنقع الذي غرقت فيه قائلاً: **"عاملتها كأميرة وأغدقت عليها كما يليق بأمير، تنورت ماري فوق نورها، واستردت عافيتها، كانت مخلوقة لأن تكون أميرة لا جارية، مخدومة لا خادمة، سيدة كريمة لا راقصة تنهشها العيون**

[1]-الرواية، ص: 182
[2]-الرواية، ص: 139
[3]-الرواية، ص: 367
[4]-سيد قطب: معالم في الطريق، ص: 176
[5]-الرواية، ص: 227

والألسنة"[1]. حاول إقناعها بالذهاب معه لموطنه ظفار، إلا أنها رفضت منتظرة عودة أمها وأختها الصغيرة يوما ما. ليست "ماري" الوحيدة من أحبت "هرم". بل "وضّاح" أيضا أحبه كوالده الذي لم يقابله أبدا.

السجان: يمثل فئة من بين الفئات التي تسعى فسادًا في الأرض، وتزرع الخوف في الشعوب مستغلة السلطة والنفوذ كي تسيطر على الضعفاء. وهكذا أبدع السجان في استغلال "ماري"؛ **"تحدث الناس بما أصبحت فيه الراقصة ماري من ثراءٍ على يدِ أميرٍ عربيّ عشقها ثم هجرها. المال والجمال أغريا الكثيرين بالتقرب منها، صارت حديث المدينة"**[2]. منهم قائد الشرطة الذي سلبها كل الممتلكات التي تركها "هرم" . قتله "وضّاح" لأنه عذّب أمّه. وأخذ مكان "هرم" بالغصب فلقي حتفه. هكذا تكون نهاية كل شرير ظالم.

2-1-2 ارتباط الذاكرة بالأماكن:

لم يتردد ذكر الأماكن كثيرا في مقصّة "ماري ترتيليان" بمقارنة "بهرم" بذكرها في قصة "ماري" لأنها لم تنتقل جسديا من مدينتها سميرناه، لكن ذاكرتها ارتبطت بأماكن تنقلها المغلقة والتي أملتها عليها ظروفها، منها بيتها الذي عاشت فيه أحلى أيام طفولتها رفقة عائلتها، يقع بقرب من بحر إيجة كما جاء وصفه في الرواية: **"فوق السطح الفسيح المطل على بحر إيجة الغامق العفي، والمحاط ببساتين الزيتون والموالح والكروم من بقية الجهات. ينتصب بيت ترتليان مثل كرمة عالية، يتعطف عليه ليلٌ مشحون برائحة الأزرق، ويتسلل لنوافذه عبيرٌ ناعم"**[3]. ثم بيت "الدلاّل" الذي أدخلها إلى عالم مظلم مكثت في بيته أسبوعين، أطعمها وكساها ثم قرر بيعها والاستفادة منها. اعتبرها غاية لكسب الأرباح من وراءها. ثم البيت الذي صار عُشًا لها ولابنها "وضّاح"، ويليه المنزل الذي اشتراه "هرم" نجد من الأماكن المغلقة أيضًا الحانة، وهو مكان يعج **"بالسكارى والصخب. أقنعها أن السكارى لن يعرفوها، هم جاءوا لينسوا أنفسهم فكيف يتذكرون من لا يعرفون أصلاً"**[4].

---

[1]-الرواية، ص: 184

[2]-الرواية، ص: 222

[3]-الرواية، ص: 58

[4]-الرواية، ص: 126

وبيت العجوز الحنونة التي أنستها متاعب الحياة لفترة قصيرة، كانت كفيلة أن تتذوق فيها طعم الأمان منذ يوم حادثة اغتصابها، رأفت بحالها لأنها حديثة الولادة فرحبت بها في منزلها لبضعة أيام. يليها بيت السجّان وهو **"أقرب لقصر صغير وراء أسوار عالية. بفنائه الخلفي معصرة وصومعتان للحبوب وثلاثة أقبية صغيرة للخزين وإصطبل للخيل والبغال وحظيرة للخِراف ومنْحَل عسل. يحاذي حقل قمح ممتدًّا حتى سهوب تنتهي بفسح الجبل"**[1]. ليس بعيدًا عن بيت "ترتليان".

أما الأماكن المفتوحة فتجسّد ذكرها في بساتين الكروم. أين هربت إليها لتختبئ من الحاكم وجنده لتقضي الليالي هناك متشردة، جائعة.

ويظل بيتها الذي تربّى فيه "وضّاح" معقلا لمعظم ذكرياتها؛ **"اعتادت الجلوس والتأمل ودعوة الذكريات والهمس في أذن صغيرها الناشئ بحيوية وعافية ملحوظة. شجرة المِسْتكَة ذات الدموع الغالية، شُجيرة تذرف دمعاتها بمجرد جرحها، فتتكلَّس الدموع وتتحجَّر فتسقط كلآلئ من الكريستال والماس، تلتقطها ماري وتحفظ حبيبات المستكة بجيبها الأبَيضّ"**[2]. ليصبح بعد موت "ماري" الذكرى القريبة ل"وضّاح" المتبقية من أمه له.

استخلاصا لتوزّع سبب المنفى وتداعياته في قصّة "ماري" يمكننا القول أن تداعيات القمع والعنف والاضطهاد الذي مارسته قوّة الملك الظالمة حوّلت الوطن إلى منفى كبير لا تمارس فيه أدنى مظاهر الحرية الفردية، فالكلّ محاصر ومدعوّ للإذلال في سبيل بقاء الملك وحكمه. وقد توزعت هذه التيمة في قصّة "ماري" برؤية لم تختلف بمنطقها عن الشكل الذي ظهرت به في قصة "هرم"، لكن اللافت بين القصّتين اختلاف شكل المقاومة، فاختيار البقاء في الوطن رغم الإحساس بالنفي النفسي في قصة "ماري" جسّد شكلا من أشكال المقاومة وبذات المبدأ تصرّف "وضّاح" الذي اعتبر الفرار ضعفا فاختار المقاومة، وهكذا كانت الحال في نظر "عبد الله بن الثامر" الذي اختار الوقوف مؤمنا في وجه "ذي نواس"، ولعل هذه النماذج جميعا تبين إصرار الروائي على ضرورة البقاء في الأوطان وعدم هجرها ليرتع فيها المجرمون ويستبيحوا خيراتها، ويتمكّنوا من مقدّراتها،

[1]-الرواية، ص: 225
[2]-الرواية، ص: 226

وفيه دعوة لعودة أبناء هذه الأوطان لأن المقاومة من الخارج ليست كفيلة بالقضاء على الطغاة.

وفي سياق توزّع الذكريات في قصّة "ماري" يظهر بشكل جلي ارتباط هذه الذكريات بأحاسيسها ومشاعرها التي تأذت كما تأذى جسدها، فقد كانت تلجأ إلى صورة والدها وذكرياته معه وحبّها لها كلما أحسّت بالضعف وقلّة الحيلة، واستجلبت ذكرياتها مع "هرم" لتحيل إلى معاني الرحمة والمودّة التي تكوّنت بينهما، وهو الغريب الوافد الذي لم يعرف والدها ولا عائلتها ولا ما كانت عليه أيام عزّها، لقد رأى فيها أميرة رفيعة المقام وعاملها على هذا الأساس، وهي الرحمة التي افتقدتها في بني جلدتها.

يمكن القول أخيرا أن العلاقة التلازمية بين المفنى والذاكرة وجدت لها نصيا مهمّا في الرواية عمّق التيمات التي استجلبتها الرواية في سياق معالجة ما تعانيه المجتمعات العربية في أياما المعاصرة، وبين سطورها دعوة إلى ضرورة التمسّك بالإيمان في سبيل استعادة الأوطان من الطغاة، والوقوف سدا منيعا بمبادئنا وهويتنا الوطنية.

خاتمة

خاتمة

شكلت تجربة المنفى في رواية "آيات عاشق" ل"محمد موافي" محوراً مركزياً للتأمل في قضايا الهوية الثقافية والوطنية، والصراع بين الماضي والحاضر، والحنين إلى الجذور والأرض الأم .فالشخصيات الروائية المنفية التي اضطرت إلى الفرار من أوطانها وتشتتت في أصقاع العالم ظلت تعيش حالة من التوتر الدائم بين أرضها، وواقعها الجديد. كما سلطت هذه الرواية الضوء على توظيف الذاكرة كوسيلة للتعبير عن هذا الصراع الوجودي والثقافي، ومحاولة استعادة الهوية المهدّدة بالزوال، كما انعكست فيها التطورات السياسية والاجتماعية التي شهدها العالم العربي في السنوات الأخيرة وتداعياتها على تجربة المنفى ومعاناة اللاجئين والنازحين، مما أثرى هذه الرواية بآفاق جديدة تتسم بالواقعية والتفاعل مع المحيط المتغير. وبناء على هذه الرؤية يمكننا استجماع نتائج هذه الدراسة على النحو التالي:

لم يكن المنفى الذي تعرض له "هرم" مختلفا عن المنفى الذي شاع تصويره في الرواية العربية الحديث والمعاصرة، وإنما منفى طوعي ولجوء سياسي خالص، حيث اضطر للفرار من موطنه خوفًا من السلطة الحاكمة وظلمها، ولم يكن وصوله إلى منفاه سهلا، فقد عبّر "هرم" عن تلك الرحلات التي قام بها من بلدٍ إلى آخر، وعن بعض الحقائق المعيشة التي يعاني ويلاتها اللاجئون العرب في البلدان العربية.

مثّل المنفى وسيلة تعبيرية ربطت هرم بماضيه حيث لا تكاد رحلات "هرم" من ظفار إلى سميرناه تخلو من حنين لوطنه ووالده وأخيه "الثامر"، ويُعد الحنين إلى الوطن وشوق العودة إليه نقطة محورية في الرواية. فقد لجأ هرم باستمرار إلى استدعاء ذكريات قضاها في وطنه الأم، بهدف الهروب من قسوة واقع المهجر وبناء عالم خاص به يسمح له بالاحتفاظ بهويته الثقافية والوطنية. هذه الرحلة الذهنية إلى الماضي كانت تمنحه الشعور المؤقت بالاستقرار والأمان الذي افتقده في حياته الجديدة . ولم يكن المنفى النفسي الذي تشكّل في ذهن "ماري" ببعيد عن هذه الرؤية، فرغم بقائها في مدينتها ظلّ الطغيان والاستبداد الذي يحيط بها من كلّ جانب يغذي الإحساس بالغربة والنفي الدائميين إلى أن توفيت حسرة وكمداً.

وقد ساعدت الذكريات بما حملته من حنين وحسرة وألم على دفع هذه الشخصيات إلى مواجهة الواقع وعيش صراع الوجود، ومحاولة التشبث بالإيمان الحقيقي بالله تعالى، مستفيدة من القصص التاريخية الواقعية التي تقاطعت بشكل مباشر مع قصتي "هرم" و"ماري"، حيث حضرت قصة أصحاب الأخدود لتلقي بظلال الإيمان الذي تربّى عليه عبد الله بن الثامر والذي مكّنه من مواجهة "أبي نواس" وعدم الانصياع لبطشه. وهكذا كانت الحال في قصة "فيميون" المؤمن، والعبد الصالح، والذين شكّلوا بوجودهم صورا لتعزيز الهوية الدينية التي تظهر في كل مرّة تخبو فيها عزيمة البشر لمواجهة الظلم والاستبداد. مما يجعلنا نستخلص قوّة الحضور الديني في شحذ هزيمة أصحاب الحقّ من المعارضين. وفي ذات السياق استحضرت قصة سيدنا "يوسف" وسيدنا "عيسى" عليهما السلام، مما يؤكد القيمة الفكرية والفلسفية لقصص الأنبياء في توجيه عقول البشر وتنويرها، وأنها مادة حقيقية تعمّق الارتباط بالهوية الثقافية والدينية.

ووفق ما سلف يتبين أن العلاقة بين المنفى بالذاكرة تلازمية، ولا يمكن الفصل بينهما، لأن طبيعة المنفى تستلزم بالضرورة استدعاء الذاكرة. حين تضطر إلى مواجهة تحديات الاندماج في المجتمع الجديد، والتكيف مع عاداته وتقاليده المختلفة عن ثقافتها الأصلية. هذه المواجهة تفرض عليها إعادة بناء هويتها ومراجعة مفاهيمها عن الانتماء والمواطنة، مما يثير الكثير من الصراعات النفسية والوجودية .

كما بيّنت الرموز الدينية المنتشرة في النص قدرة الروائي على امتصاص الموروث الديني وإعادة تشكيله في صورة موضوعية إما تتقاطع مع الواقع بشكل مباشر أو أنها تقابله محاولة لتصحيح الرؤى والأفكار. ولم يكتف الروائي بذلك وحسب، لا استغل آنية رمزية في شكل لوزة كانت بمثابة خزان أسرار، عوّضت "هرم" في نفيه عن البشر والزمن الذين لم يعرف منهم غير الأذى، ومثلت من جهة أخرى الإنسان العربي الذي يعاني في صمت.

أخيرا لا يسعنا غير القول أن رواية "آيات عاشق" ل"محمد موافي" تبقى كتابًا مفتوحًا، للعديد من الدراسات، أبرزها درستان؛ أما الأولى فبحث الأنساق المضمرة في الرواية، ومثل هذا البحث كفيل بتقديم رؤية جديدة، حيث تتقابل الأنساق في النص بشكل نموذجي ونطاق المسكوت عنه كبير. أما الدراسة الثانية

فمعالجة تناصية تستمد رؤيتها من حضور النص الغائب بكثافة، ومن المؤكد أنهما ستضيفان الكثير الكثير في هذا المجال.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع

مصدر الدراسة :

❖ محمد موافي: آيات عاشق نشوة الطلياني البيرتينو فيرو، دار العين للنشر، القاهرة، ط: ، 2022م.

المراجع:

❖ إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، طبع التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، ع: 01، 2022م.

❖ أبو عبد الملك أحمد بن فتحي البكيري: قصة أصحاب الأخدود، فوائد وعبر، دط، دت.

❖ إدوارد سعيد: تأملات حول المنفى، تر: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط: 01، 2004م.

❖ توفيق قريرة،سيميائية الدم العربي،القدس لعربي، https://www.alquds.co.uk/ 20/11/2017

❖ جمعة مصاص: المنفى وتسلط الذاكرة في كتبات مليكة مقدم: روايات: رجالي، الممنوعة، المتمردة أنموذجا، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، جامعة عباس لغرور، خنشلة الجزائر، م: 12، ع: 01, 2023/03/02.

❖ رفاعى سرور: أصحاب الأخدود، مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، ط: 05، 4736هـ/1995م.

❖ سامي الصلاحات: معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط: 01، 2007م.

❖ سيد قطب: معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط: 06، 1399هـ/1979م.

❖ السيد محمد الشامي، العالم كبنية سياسية نافية، مفهوم ياسين الحاج صالح عن المنفى. جامعة مانشستر، 17 أكتوبر 2020، https://www.researchgate.net/publication/344711549

❖ صلاح جواد شُبّر: ثورات الربيع العربي, نظرة من الداخل,وعامل ثقافة التشيع، دار الروافد، دط، دت.

❖ عادل بن عايض بن أحمد الثبيتي: عمليات الذاكرة لدى طلاب المرحلة الثانوية والجامعية بمحافظة الطائف دراسة مقارنة, محمد بن بن حمزة السليماني، جامعة أم القرى كلية التربية، المملكة السعودية، 1432هـ/1433هـ.

❖ عبد السلام جليط، صداقة الأمكنة. https://www.aljazeera.net/blogs/2017/5/9 .2024/05/01

❖ عبد الله إبراهيم: التخيل التاريخي, السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط: 01، 2001م.

❖ عبد الله إبراهيم: الكتابة والمنفى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 01، 2012م.

❖ عدنان يوسف العتوم: علم النفس المعرفي، النظرية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، دط، دت.

قائمة المصادر والمراجع

- ❖ عزيز محمد السيد: أسرار الذاكرة الإنسانية وإمكانات العقل البشري، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط: 01، 2014م.
- ❖ عماد الدين فارس، قصة الإنسان المقموع، موقع الجزيرة ، https://www.aljazeera.net/blogs/2024/1/9
- ❖ فريدة مقلاتي: المنفى واشتغال الذاكرة في رواية "صيف العدو" للروائية شهلا العجلي، مجلة جامعة، مجلة سنوية محكّمة، جامعة خنشلة، الجزائر، م: 13، 2021م.
- ❖ القصيدة للشاعر فخري البارودي والتي تفاءل فيها بتجسيد الوحدة العربية.
- ❖ لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، "عربي، إنجليزي، فرنسي، دار النهار للنشر، لبنان، ط: 01، 2002م.
- ❖ مايكل يوسف سلوانس: ذاكرة الإنسان
- ❖ محمد بوعزة: تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لنان، ط: 01، 1431هـ/1995م.
- ❖ محمد فريد أبو حديد: المهلل سيّد ربيعة، الناشر مؤسسة هنداوي، دط، 1949هـ/2020م.
- ❖ منير عرفه: أصحاب الأخدود، موسوعة القصص القرآني، دط، دت.
- ❖ وهب بن منبه، تيجان ملوك حمير، تح: مركز الدراسات اليمنية، مركز الدراسات اليمنية والأبحاث اليمنية الجمهورية العربية اليمنية صنعاء، ط: 01، 2004م.